



---

# البلاغة العربية فى أساليب القرآن

الدكتور  
محمد السيد موسى

الطبعة الثانية  
مزيدة ومنقحة  
٢٠٠٢

---

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ هـ / ١٤٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين .. وبعد  
فلئن القرآن الكريم معين لا ينضب ، وثمر لا يجف ، يقف أمامه الدارسون على طول المدى لينهلوا من عطائه المتجدد .. فيغوض الدارس في أعماقه ، ويجوب أجواءه وأركانه ، فإذا خرج إلى شاطئ أصدافه ، وجد نفسه في أمس الحاجة إلى التزود من زاده ..

وقديما وقف العرب وهم في قمة بلاغتهم عاجزين أمام أسلوب القرآن الذي طالما ألفوا أشعارهم وخطبهم من نفس نسيجه وكلماته ، ولكنهم ما فطنوا إلى روحه التي تسرى فيه من أمر الله ، كما تسرى الروح في الجسد فتبهه إعجاز الحياة .. فيرى الناظر المتأمل إعجاز الحرف في مكانه من الكلمة زيادة أو حذفًا وإعجاز اختيار الكلمة ووضعها موضعها في سياق الجملة وعلاقتها بأخواتها وتأثير ذلك في فحوى الموضوع وبناءه ، وهو نفسه السياق Contrex الذي صنغه جون دي بوا في قاموسه - الألسنية والعلوم اللغوية - إلى ثلاثة مستويات : السياق اللفظي وهو مجمل النص الذي توجد فيه وحدة لغوية محددة ويقصد بذلك موقع تلك الوحدة من خلال علاقتها بالوحدات الأخرى التي تسبقها والتي تليها ، والـ **السياق الموقعي** : وهو مجمل الظروف الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي تقع فيها الجملة أو الحديث ، والنحو والتركيب وهو المستخدم كثيرا في بناء السياق<sup>(1)</sup>

## \* مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في وجود أساليب بلاغية في سياقات القرآن الكريم تتباين بحسب موقعها وموضعها ، فمنها ما يكون في فواتح السور أو انتقال

<sup>(1)</sup>Jean Dubois Dictionnaires de linguistique et des sciences du langage, Paris, Larousse, 1994, P. 116.

## مقدمة

الحديث من موضوع إلى موضوع ، حاملا الكلمة بإعجازها المستخدم من حيث مجيئها وحيدة في القرآن ، أو مجيئها مكررة ولكن في مواضع مختلفة بصيغ متباينة ، ومنها ما يأتي بأسلوب الوصف الذي يؤديه غير تلك الكلمة المختارة في ذلك الموضع ..

### **\* هدف البحث ومنهجه :**

يهدف البحث إلى الوقوف على بعض أساليب القرآن البلاغية ، واستخراج أسرارها التركيبية ، وبيان كيفية التخلص ومواضعه ، والوقوف على أسرار موضع الكلمة في الأسلوب القرآني وبيان الأغراض البلاغية للوصف من خلال السياق القرآني .. وقد تمثل منهج البحث في الوقوف مع فواتح السور القرآنية واستخراج إبداع الدلالة في الخبر والإنشاء الواقع بها ، والوقوف مع بعض مواضع الفعل ومتعلقاته وجمع الكلمات التي وقعت صفة وبيان العلاقة بينها وبين الموصوف من خلال سياقه .. ويقوم البحث - أيضا - في منهجه بجمع موضوعات مختلفة لرؤية كيفية الانتقال بينها في سورة قرآنية مختلفة ، ثم أخيرا نأتى للوقوف على أسرار الإعجاز اللغوي من خلال الوقوف مع كلماته ..

### **\* خطة البحث :**

اشتملت خطة البحث على الفصول الآتية :

- الفصل الأول : إبداع التركيب ودلالته
- الفصل الثاني : إعجاز الوصف
- الفصل الثالث : التخلص
- الفصل الرابع : إعجاز الكلمة
- الخاتمة

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

## الفصل الأول

### إبداع التركيب ودلالته

#### \* دلالات الداء أكيب

جاء أسلوب القرآن الكريم فريداً لا يبارى ولا يناهض ، وقد جاءت الكلمات والحروف ، في تسميجهما وسياقاتها مجيئاً له دلالاته من حيث اختيار اللفظ وصلته بغيره من الكلمات وهيئته المختارة ، وسوف نقف مع بعض السياقات المختلفة لنأخذ من أسرارها ما ياذن به الله تعالى ..

#### - الخبر والإشياء في فواتح السور

يعدّ الاستهلال السورة مدخلاً بليغاً إلى موضوعاتها ، ولذلك تباينت فواتح السور من الأسلوب الإنشائي بأنواعه المختلفة وبلاغته ، إلى الأسلوب الخبري بأغراضه البلاغية ، ومن الاستهلال الإنشائي لسور القرآن الكريم :

#### “ الاستهلال بالنداء والأمر

جاء النداء في مطلع بعض السور <sup>(١)</sup> بـ (يا أيها الذين آمنوا) إذا كان في معرض التكليف ، فيكون النداء خاصاً بالمؤمنون لفتاً لهم وإشارة لإيمانهم ، وتعظيماً من شأنهم ، ومن ذلك قوله تعالى :

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ)) المادة (١)

فجاء النداء بفتحة حمية الإيمان في نفوسهم أولاً ، ثم جاء الأمر بالوفاء بالعقود ، وهو أسلوب إنشائي آخر أدى تركيبه مع النداء إلى تمكين الأمر بالوفاء في نفس المخاطب ... وقد جاءت بداية هذه السورة متفقة مع آخر السورة التي قبلها - سورة النساء - لتسير في مضمار واحد ، حيث انتهت سورة النساء ببيان جانب من الحقوق المالية في الميراث ، لكي تؤدي هذه الأمانات وتلك

<sup>(١)</sup> جاء في عشر سور (النساء - المائدة - الحج - الأعراب - الحجرات - المتحنة - الطلاق - التحريم - الزمر - المدثر) نظر الزركشي في البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار التراث - ج ١ - ص ١٧٨



الحقوق إلى أهلها وفاء بأمر الله وقضائه ، ومن ثم جاءت بداية سورة المائدة تحمل الأمر بالوفاء بالعقود ، فهي نسيج من نسيج ..  
وهذه السورة الكريمة - سورة النساء - قد بدأت بالأمر بالتقوى في قوله تعالى :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا))

وهذا الأمر بالتقوى هو ما انتهت به السورة السابقة - أيضا - حيث يقول المولى عز وجل في ختام سورة آل عمران :

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))

وكان النداء في مطلع سورة النساء بقوله تعالى : (يا أيها الناس) لأن الخدلاب بعده جاء فيما يشترك فيه جميع الناس ، من أصل الخاقعة من آدم - عليه السلام - وخلق زوجها - حواء - من تلك النفس ..

ولأن المقام مقام تربية الناس على التقوى ، فقد جاء السياق بـ (ربكم) ، في قوله (اتقوا بكم) ، وكذلك الشأن مع افتتاح سورة الحج ، حيث يقول تعالى :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ))

وقد جاء النداء بـ (يا أيها الناس) - أيضا - لشمول هذا الأمر جمع الناس .. وأضاف (الزلزلة) إلى (الساعة) لإبراز هول المشهد ، فتظهر الحركة العنيفة

من لفظ الزلزلة وتكرار حرفي الزاي واللام يمثل تلك الحركة بتكرارها ورجفتها ، بينما يقوم لفظ (الساعة) بإحضار تلك الصورة في سرعة وكأنها تقع في هذه الساعة .. وقد زاد من تصوير هول المشهد ، الإخبار عن (زلزلة الساعة) بـ (شيء) على الإبهام والتكثير التهويلي ، ثم الوصف بـ (عظيم)

ومن تتناسب بداية هذه السورة مع سابقتها (سورة الأنبياء) التي انتهت بقوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ))

وهو دعاء من النبي ﷺ لربه أن يحكم بينه وبين المكذبين ويقضى بينهم ، فجاءت بداية سورة الحج وكأنها جواب على ذلك بأن الحكم والقضاء يوم القيامة الذي عبر عنه بزلزلة الساعة (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) .

وقد اختلف النداء في مطلع سورتي المزمّل والمدثر ، تبعاً لاختلاف الحالة التي عليها المخاطب وهو النبي ﷺ فقال تعالى في سورة المزمّل : ((يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ الْيَلِ إِلَّا فَيَلًا)) ، وقال في سورة المدثر : ((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ)) .

فالمزمّل ، قال ابن عباس - رحمه الله - النائم ، وهو الذي تغطي بغطاء النوم ، فالمسياق يعبر عن حالة النوم ليلاً ، بغطاء فوق ما يلبسه النبي ﷺ ، ولذلك جاء الخطاب بـ (المزمّل) وأبرز المشهد الأمر بـ (قم الليل) ، وقد يكون الأمر بالقيام بالليل ، مجازاً عن الصلاة ، أي صلّ الليل ، وأثر التعبير بالقيام عن الصلاة إشارة إلى طول القيام فيها وكثرة تلاوة القرآن التي لا تكون إلا حال القيام في الصلاة .

أما الخطاب بـ (المدثر) فلم يكن النبي ﷺ في حالة نوم ، وإنما كان ذلك في أول الوحي ، عند ذهب إلى السيدة خديجة -رضي الله عنها- وقال دثروني دثروني<sup>(١)</sup> بسبب ما أخذه من رؤية جبريل عليه السلام .. ولذلك ناسب هذا النداء ، الأمر بعده بالقيام للإنذار ، فهذا المقام يختلف عن القيام السابق في سورة المزمل ، ولذلك ناسب كل مقام مقاله .

**الاستهلال بالأمر وحده** في بعض السور القرآنية دون النداء<sup>(٢)</sup> ، وهو في خطاب النبي ﷺ خصوصا ، يقول تعالى :

((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ (١)

أمر الله نبيه ﷺ أن يذكر لقومه أن الجن استمعوا إلى القرآن الكريم وجاء الفعل بالبناء للمجهول (أوحى) للعلم بالموحي -مبجته- وهذا الحذف يناسب جو المشهد واستماع الجن للقرآن ، فكانوا بمثابة الغيب لا يراه أحد ، فهم محذوفون من الرؤية البصرية ، فحذف لفظ الفاعل من السياق إشارة لهذا الغيب الذي اختص به الله . والله تعالى أعلم .

#### الاستهلال بالأمر في المعوذات

\* (قل هو الله أحد) هذا أمر بالجهر بالتوحيد الخالص ولذلك جاء التصريح بلفظ الجلالة (الله) دون الرب للتأكيد على الوحدانية وتخصيصها بالله سبحانه وإثارة الاهتمام بما بعده ، وقد أثر التعبير بقوله (أحد) دون (واحد) مثلا ، لأنها "صفة مشبهة مثل : حسن ، وصيغة الصفة المشبهة تفيد تمكن الوصف في موصوفها يأتي ذاتي له ، فلذلك أوتر "أحد" هنا على (واحد) لأن (واحد) اسم فاعل لا يفيد التمكن . و (واحد) و (أحد) وصفان مصوغان

<sup>(١)</sup> الدثار : «الرب الذي يلي فوق الباب الذي يلي الجسد .

<sup>(٢)</sup> ورد ذلك في ست سور (الجن - العلق - الكافرون - الصمد - الفلق - الشمس)

بالتصريف لمادة متحدة ، وهي مادة الوحدة ، يعنى التفرد . وقال ابن سينا : إن (أحد) دال على أنه تعالى واحد من جميع الوجوه ، وأنه لا كثرة هناك أصلاً . وذلك متضمن لكونه سبحانه منزهاً عن الجنس والفصل ، والمادة والصورة ، والأعراض والأبعاد والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما ينظم الوحدة الكاملة والبساطة الحقّة اللاتقة بكرم وجهه عز وجل عن أن يشبهه شئ أو يساويه سبحانه شئ" (١).

\* ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)) - ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ))

لماذا كانت الاستعاذة في الأولى : (رب الفلق) وفي الأخرى : (رب الناس) ؟!

إن في ذلك نكتة بلاغية ينم عنها السياق .. وقيل ذلك ، فلن هذا الاستهلال في المورثتين يتناسب مع خواتيم ما قبلها .. فقد انتهت سورة الإخلاص بقوله تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفي ذلك إثبات للوحدانية المطلقة لله تعالى ، فلا مثيل ولا نظير له سبحانه ، ثم كانت بداية سورة الفلق : (قل أعوذ برب الفلق) . فجاء الأمر بالاستعاذة برب الفلق ، أى الذى ( شق ) كل شئ فأخرج منه الحياة ، ولا يستطيع أحد ذلك إلا الله ، وهو ما ذكر فى غير موضع (إن الله فالق الحب والنوى) - (فالق الإصباح) ، "والفلق كل شئ انشق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعها ، وخص فى العرف بالصبح ، فقيل : فلق الصبح" (٢).

(١) ابن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر - الجامعة العربية الليبية - ٣٠ / ٦١٤  
(٢) القفص - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور - تحقيق - عبد الرازق المهدي - ط ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥ - ٦٠٤/٨

فخص هنا الاستعاذة برب الصبح ، لما فيه من النور والضياء بعد الظلام والحياة بعد الموت ، وذلك أنسب لما ذكر من المستعاذ منه ، وهو (من شرّ ما خلق) على العموم و (من شرّ غاسق إذا وقب) على الخصوص ، وهو الليل. بظلامه ، "وكان شرّ الأشياء الظلام ، فإنه أصل كل فساد ، وكانت شرارته مع ذلك وشرارة السحر والحسد (المذكورة في السورة أيضا) خفية ، خصها بالذكر من بين ما عمه الخلق ، لأن الخفى يأتي من حيث لا يحتسب الإتمان فيكون أضر" (١)

ولما ختمت هذه السورة بذكر التعوذ من الحسد : (ومن شرّ حاسد إذا حسد) ، والحسد أصل العداوة بين الإنس والجن وهو يصدر - أيضا - من طبيعة بشرية يطلقه بعض الناس لبعضهم ، كانت البداية في سورة الناس : (قل أعوذ برب الناس) فتوافقت مع خاتمة (سورة الفلق) ، "وعرّف (رب) بإضافته إلى (الناس) دون غيرهم من المربوبين لأن الاستعاذة من شرّ يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيضلّون ويضلّون ، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس" (٢)

وخصّ الذكر بالاستعاذة برب الناس ، لأن هذه السورة جاءت "متضمنة للاستعاذة من شرّ خاص ، وهو الوسواس ، وهو أخص من مطلق الحسد ، ويرجع إلى المعاييب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة ، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها .. وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : وجه تأخيرها - أي سورة الناس - عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية ، ألا ترى عموم قوله : (من شرّ ما خلق) وإيهام (ما) وتكثير (غاسق) و (حاسد) والعهد فيها استعيز من شره في سورة الناس وتعريفه ونعته ، فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذه منه" (٣)

(١) نفسه ٦٠٤/٨

(٢) التمرير والتوير ٦٣٢/٣٠

(٣) نفسه ٦١٢/٨

**الاستهلال بالقسم**

أقسم<sup>(١)</sup> المولى عز وجل بكثير من مخلوقاته فى مطلع بعض سور القرآن الكريم ، وهذا القسم يرشد العقول إلى أهمية المقسم عليه ، ويؤدى إلى التشويق إلى ما يأتى بعده ، ويأتى القسم فى أول السورة مناسبة لما أقسم عليه ، كقوله تعالى :

((وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ))  
البروج (٣-١)

فالقسم هنا بالسماء وبروجها ، وفى هذا مناسبة القسم لما أقسم عليه ، فقد تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود ، ولما كانت الأخلايد خطوطاً مجعولة فى الأرض مستعرة بالنار أقسم على تضمينها بالسماء بقيد صنعه من صفاتها التى يلوح فيها للناظرين فى نجومها ما سماه العرب بروجاً وهى تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار .. وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة ، مع ما فى القسم به من إدماج الإيمان إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها ووعيد أمثالهم المعرض بهم ومناسبة القسم بـ (شاهد ومشهود) على اختلاف تأويلاته ، قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود<sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى :

((وَالْبَلِّ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)) الليل (٤-١) .

(١) بعد القسم - دون جوابه - من الأساليب الإنشائية

(٢) التحرير والتنوير ٢٣٧/٣٠ - ٢٣٨

فالقسم هنا بالليل ، والنهار ، وخلق الزوجين ، ثم يأتي المقسم عليه ، وهو سعى الناس .. والعلاقة بين القسم والمقسم عليه ، علاقة ترابطية ، فهي أولا من مظاهر قدرة الله على الخلق والإبداع ، فالله خلق الإنسان بنوعيته ، وخلق له الليل للنوم والراحة ، وخلق النهار بنوره ليعمل ويجد ، ولابد أن يسعى الإنسان سيختلف باختلاف الليل والنهار ، فمنه الظالم المظلم كظلام الليل ، ومنه المشرق النافع كنور النهار وضياؤه ، وفي هذا تذكير بالحساب على السعى .

وقد يرد القسم ببعض أوقات اليوم في موضع آخر من مطلع سورة أخرى ، ولكن بدلالة أخرى مغايرة لما سبق ، كقوله تعالى :

((وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)) الضحى (٣-١)

فجاء القسم بوقتتين محددتين : الضحى برفته وشفافيته ، والليل ليس على إطلاقه ، وإنما (إذا سجد) إذا صفا ورق نسيمه ، وهذا ليناسب المقسم عليه (ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) ما تركك ربك وما كرهك .. "فأطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديدة ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف ، ويقسم الله سبحانه - بهاتين الأيتين الرائقتين ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس" (١) وقوله تعالى :

((وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ))

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ط ٢٥ - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٦ - ٩ - ٣٩٢٦

فلم يأت القسم هنا بالليل ولا بالنهار ولا بالشمس أو نحو ذلك ، وإنما جاء بما يشمل كل الأزمان ، ، والعصر .. وفي ذلك مناسبة للمقسم عليه ، فالعصر هو عمر الإنسان ، إن لم يفتتمة بالعمل الصالح ، عصره وأصبح في خسر .

#### \* الاستهلال بالاستفهام

جاء الاستفهام في صدر ست سور من القرآن الكريم <sup>(١)</sup> .. وقد جاء الاستفهام في أكثرها يحمل غرض التقرير الذي جاء بصيغة (هل) في سورتي : (الإنسان) و (الغاشية) .. يقول تعالى :

((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا)) (الإنسان (١))

وقوله تعالى : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ..)) (الغاشية (١))

(هل) تدل على التحقيق ، إذ هي بمعنى (قد) ، وقد زادها تحقيقاً ، مجئ الفعل الماضي بعدها في السورتين (هل أتى) و (هل أتاك) ..

وقد يكون من الصواب أن نقول : إن الأسلوب الإنشائي عن طريق الاستفهام بـ (هل) يأتى في الأمور الهائلة ، والأحداث الجسيمة لمزيد من التثريق والتنبيه على أهمية الخبر ، كصمد سورة الإنسان .. فالاستفهام حمل غرض التقرير ، أو الإقرار بحقيقة الإنسان ، بأن الله أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه <sup>(٢)</sup> ، وقد حمل الاستفهام غرضاً آخر ، وهو الإنكار على ما يتطع بأن لا يترك سدى ، (هل أتى) أى بوجه من الوجوه ، (على الإنسان)

<sup>(١)</sup> هي : الإنسان - الغاشية - الانشراح - الفيل - الماعون .

<sup>(٢)</sup> ابن كثير- تفسير القرآن العظيم- اختصار وتحقيق الشيخ الصابون - ط١ دار القرآن الكريم - بيروت - ١٩٨١ - ٥٨٠/٣



أى هذا النوع الذى شغله عما يراد به ويراد له لعظم مقداره فى نفس الأمر الأئس بنفسه والإعجاب بظاهر حصه والنسيان لما بعد حلول رسمه (١).

وأتى أسلوب الاستفهام بـ (هل) فى صدر سورة الغاشية ، وهى تتحدث عن أمر هائل ، وحدث عظيم ، وهو الغاشية ، أى القيامة ، واشتقاق اللفظ يزيد المشهد هولاً ، لأنه مشتق من الغشيان وهو التغطية .. وقد ورد الاستفهام بـ (هل) فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، يحمل من بين أغراضه التهويل أو الإنكار على فعل قبيح ، أو الإخبار بحدث عظيم . كمجئ (هل) فى مشهد من مشاهد التهويل فى قوله تعالى :

((هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ)) البقرة (٢١٠)

ومجئ (هل) فى معرض الإنكار على الكافرين وتوبيخهم ، كما فى قوله تعالى :

((هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)) قلمر (٣)

فقد أخذ فى النكير على الكافرين والجاحدين ، وفيه إثبات للوحدانية وخصوصية الرازق . وقد جاءت فى عرض حدث هام غيبى ، كما فى قوله تعالى :

((وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)) ص (٢١)

ولأهمية الحدث عبر عنه بالذبا دون الخبر ، فوراء القصة هدف وغرض ، وهو المراد .

وقوله تعالى : ((وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)) مله (٩)

وقوله تعالى : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)) النازعت (١٥)

بينما يكثر الاستفهام بـ (ألـم) في مقام التذكير بنعم الله وفضله ، كقوله تعالى :

((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)) في صدر الانشراح

وقوله تعالى في التذكير بنعم الله وفضله في صد أصحاب الفيل عن البيت الحرام وهلاكهم : ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)) .

وقوله تعالى في مقام ذكر النعم والفضل في غير فواتح السور :

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)) الحج (٦٣)

وقوله : ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)) الحج (٦٥)

وقوله : ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا)) النور (٤٣)

وغيرها كثير في القرآن الكريم .. وقد تأتي - أيضا - في مقام التوبيخ والتذكير والتعجب بـ (ألم تر) لاستحضار المشهد وكأنه رأى عين ، كقوله تعالى :

((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ)) البقرة (٢٥٨)

#### \* الاستهلال بالجملة الخبرية

تأتي بعض السور القرآنية حاملة في صدرها الجملة الخبرية ، وذلك للتبوية على أمر عظيم ، وللتأكيد على أهمية ما يأتي بعده ، وقد تبين الاستفتاح بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية وبين الأغراض البلاغية المستقاة من وراء ذلك ، فقد يكون الغرض هو : تفخيم الحدث وتهويله ، كما في قوله تعالى :

((أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) النحل (١)

وأمر الله : أى عقاب الله للمشركين ، أو هو يوم القيامة - كما قيل - ، وجاء الأسلوب الخبرى في صدر هذه السورة الكريمة حاملا التهويل من ثلاثة وجوه : الأول : التعبير عما سيقع في المستقبل من عذاب أو قيامة بلفظ الماضي (أتى) تبنيها على تحقق وقوعه . الثاني : إضافة (أمر) إلى لفظ الجلالة (الله) دون أن يقول مثلا : (أتى أمر ربكم) ، لأن المقام مقام وعيد وتهديد . الثالث : إدخال الخوف والفرع في نفوسهم عن طريق النهى (فلا تستعجلوه) ففيه دلالة على أعظم ما أخفى لهم من عذاب لياتيهم بغتة .

ومن ذلك الغرض - أيضا - مجئ الجملة الخبرية الفعلية في صدر سور الأنبياء ، حيث يقول تعالى :

((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ))

فقد حملت الآية معنى الوعيد والتهويل ، لإنذار الناس بقرب الحساب والقيامة وقوله : (لنأس) متعلقة بالفعل ، وتقديما هي ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة <sup>(١)</sup> . ومثل ذلك ما جاء - أيضا - في صدر سورة القمر : ((اقترب السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)) . وإسناد الفعل للفاعل المجازي (الساعة) ، (القمر) فيه تركيز على الحديث واستحضار له ، فيكون أبعث على المهابة والهول .

ومن الجمل الاسمية التي حملت نفس الغرض - التهويل - ما جاء في صدر سورة الحاقة : (الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) . وقد تلاحقت مظاهر الهول في مطلع هذه السورة الكريمة فالبناء اللغوي والصوتي للكلمة يدخل الهول والفرع في النفوس ، لأنه يوم الثواب والعقاب . ثم الاستفهام التهويلي مرتين ، وإعادة كلمة (الحاقة) بما فيها من مد وتضعيف ثلاث مرات . "والأصل : الحاقة ما هي ، أى : أى شئ هي تخيما لثباتها وتعظيما لهولها ، فوضع الظاهر موضع المضمرة ، لأنه أهول لها ، وقوله : (وما أدراك) ، أى شئ أعلمك ما الحاقة يعنى : أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمتها" <sup>(٢)</sup> .

ومثلها ما جاء - أيضا - في صدر سورة القارعة (القَارَعَةُ . مَا الْقَارَعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارَعَةُ) فالافتتاح بلفظ (القارعة) افتتاح مهول وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به ، وإعادة لفظ (القارعة) إظهار في مقام الإضمار عدل عن أن يقال : القارعة ماهية ، لما في لفظ القارعة من التهويل والترويع ، وإعادة لفظ المبتدأ أغنى عن الضمير الرابط بين المبتدأ وجملة الخبر و (القارعة) وصف من القرع وهو ضرب جسم بأخر بشدة لها صوت و (ما) استفهامية ،

<sup>(١)</sup> الشوكاني - فتح القدير - تحقيق د. عبد الرحمن عميرة - ط ٢ - دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٧ - ٥٤٣/٣

<sup>(٢)</sup> الزحري - الكشف - تحقيق - مصطفى حسن - ط ٣ - دار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧ - ٥٩٨/٤

والاستفهام مستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل المركب لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه <sup>(١)</sup>.

\* وقد يأتي الخبر في صدر السورة يحمل عتاباً على حادثة معينة ، وهو ما جاء في صدر سورة (عبس) ، حيث يقول الله تعالى :

((عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى))

وهو تعبير رسم صورة غضب النبي ﷺ وانفعاله النفسي من جرّاء كلام ابن أم مكتوم - عليه السلام - معه . "وافتح هذه السورة بقولين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما ، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم" <sup>(٢)</sup>.

\* وقد يأتي الخبر في صدر السورة يحمل توبيخاً على فعل أو سلوك معين ، كقوله تعالى في صدر سورة التكاثر : ((الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)).

التنافس والتفاخر بالكثرة شغلتهن عن القرآن والتدبر في الأحوال ، وهذا الأسلوب توبيخ على هذا الفعل ، وقد بلغ هذا التوبيخ مبلغه بالزجر والردع بقوله : (كلا) وتكراره ، مع تكرار التهديد والوعيد (سوف تعلمون) فقال جل شأنه : ((كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون)).

<sup>(١)</sup> التحرير والتوير ٣٠ / ٥٠٩ / ٥١٠

<sup>(٢)</sup> غصه ٣٠ / ١٠٣

\* وقد تأتي الجملة الخبرية في صدر السورة تحمل غرض التفعييم والتعظيم ، وقد بلغ التعظيم مبلغه إذا يقول سبحانه :

((الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))

(الرحمن) اسم مشتق من الرحمة للمبالغة ، وهو أبلغ من (رحيم) ، وقد اختتمت البداية بهذا الاسم دون غيره من أسماء الله الحسنى ، لمناسبة المقام والحديث بعده ، فهو الذي أنزل القرآن رحمة للعالمين ، وهو - سبحانه الرحمن الرحيم بالإنسان .. وقال أبو علي الفاسي<sup>(١)</sup> : الرحمن : اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، والرحيم : إنما هو في جهة المؤمنين ، قال تعالى : ((وكان بالمؤمنين رحيماً)) . الأحزاب (٤٣)

\* ومن الخير التعظيم في صدر سورة القرآن ، ما جاء لتعظيم القرآن الكريم ، وذلك في سورة النور : ((سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) .

فجاء التعظيم هنا لسورة النور بصفة خاصة ومحددة لما اشتملت عليه من أحداث عظيمة وأحكام اجتماعية وتربوية جليلة .

وكتوله تعالى في تعظيم القرآن بصفة عامة في صدر سورة الزمر :

((تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ))

وكقوله تعالى في تعظيم القرآن - أيضا - بصفة عامة في صدر سورة (القدر) ،

((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ))

ربما يكون التعبير بـ (أنزلناه) إشارة وتمييزا للقرآن الكريم ساعة نزوله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر كما روى في ذلك ..

وقد جاء تعظيم القرآن في صدر السورة من ثلاثة أوجه <sup>(١)</sup> : الأول : أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره . الثاني : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه . الثالث : الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه .

#### \* في الفعل ومتعلقاته

قد يأتي الأسلوب حاملا الفعل بزمانه المعتاد ، لكن يراد به معنى آخر ليكون أمكن في النفس باكتشاف خفايا المعنى من حيث لا يتوقع الإنسان ، وهو ما يعرف في البلاغة بالانتفات

كقوله تعالى : ((إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْفِيقِينَ)) (الأنفال ٩)

فعبّر عن الماضي بالمستقبل (تستغيثون) بدلا من (استغثتم) مثلا ثم الانتقال إلى الماضي (فاستجاب) ، ولعل النكتة البلاغية في ذلك ، أن الاستغاثة

<sup>(١)</sup> الكشاف ٧٨٠/٤

من العبد لربه دائمة لا تنقطع ، فعبر عنها بالاستمرار ، أما الاستجابة فهي قريبة متحققة من الله تعالى ، فعبر عنها بالماضي ، ليكون ذلك ادخل للطمأنينة في النفس وأمكن للثقة في الدعاء والاستغاثة .  
وكذلك - أيضا - جاء التعبير بالمستقبل عن الماضي في قوله تعالى :

((إِذْ يَغْشِيَكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَى مَعَكُمْ ..))  
الأنفال (١١-١٢)

فالنعاس والماء والتطهير وذهاب الرجز والربط على القلوب والتثبيت والوحي إلى الملائكة ، كل هذه الأمور قد حدثت ووقعت بالفعل ، ولكن التعبير عنها قد جاء بالاستمرار والاستقبال ، فهذه الأمور دائمة للمؤمنين ، وفي التعبير عنها بالمستقبل استحضار لنعم الله تعالى وتذكير دائم للمؤمنين ، فيكون ادعى على بث الثقة بنصر الله في النفوس .

وقد تأتي الجملة الفعلية منفية والمراد النهي ، وقد جاء ذلك في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، "وقد كان العرب إذا أرادوا المبالغة في ترك الشيء عدلوا فيه عن النهي إلى النفي المحض العام، وصار ألزم في المنع، إذ صار من الأشياء التي تقع أصلا" (١) ومن ذلك قوله تعالى :

((وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ))  
البقرة (٨٤-٨٣)

(١) أبو حيان - البحر المحيط - ط ٢ - دار الفكر ١٩٨٣ - ١٣٠/١



(لا تعبدون) أى : لاتعبدوا إلا الله ، و (لا تسفكون) أى : لا تسفكوا ، (ولا تخرجون أنفسكم) أى : لا تخرجوا أنفسكم ، وهو "التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقيمته أنه سبحانه يتجه إليهم بالخطاب لإعلامهم بالتكليفات ، وهو أبلغ من أن يكون الكلام بالغيبة" (١)

أما قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ..)) الأعراف (٥٧)

وقوله تعالى :

((اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ..)) الروم (٤٨)

فقد جاء الفعل (يرسل) بلفظ المستقبل ، بينما جاء الفعل بلفظ الماضى فى قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ..)) الفرقان (٤٨)

وقوله تعالى أيضا :

((وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ..)) قاطر (٩)

جاء التعبير بالضمير المفيد للاختصاص (هو) فى سياق تقديم الإشارة (بشرا) على شبه الجملة (بين يدي رحمة) وذلك مع الاستقبال (يرسل) ومع

(١) د . فتح الله سليمان - الفعل فى سورة البقرة - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٩٩٧ - ص ٨٣

المادني (أرسل) ، وجاء بلفظ الجلالة (الله) في سياق إثارة السحاب (فتثير سحابا) مع المستقبل (يرسل) ومع الماضي (أرسل)

وقد جاء التعبير بلفظ المستقبل في سورتي الأعراف والروم ، "لأن ما قبله في هذه السورة ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله : (وادعوه خوفاً وطمعاً) وهما يكونان في المستقبل لا غير فكان (يرسل) بلفظ المستقبل أشبه بما قبله" <sup>(١)</sup>

أما في سورة الفرقان ، فلما تقدم ذلك أفعال ماضية وهو قوله تعالى : (مَدَّ الظِّلَّ) و(جعله) (ثم قيضناه) و(جعل لكم الليل) و(جعل لكم النهار) ناسب ذلك : (وهو الذي أرسل الرياح) ، وأما آية فاطر : فإنه تقدم قوله تعالى : (انكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) وهو المطر ، وإنما يذكر بشكر النعم الماضية على زمن الشكر ، فتناسب (أرسل) ماضياً. <sup>(٢)</sup>

وقد يقع التبادل في مواضع الكلمات بغية هدف بلاغي معين يثبت في النفوس ، فيتمكن المعنى بصورته الحية في الأذهان ، وقد جاء ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ، فجاء الخبر مقدماً على المبتدأ في تركيب بلاغي دقيق ، كاختصاص الملك بالله - سبحانه - وقصره عليه وحده ، كما في قوله تعالى :

((لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...)) (الشورى ٤٩)

أو قصر العبودية على الله وحده ، واختصاصه بالاستعانة كما في تقديم المتعلقات أو معمولات الفعل ، كما في قوله تعالى : ((إِلَيْكَ تَعْبُدُ وَإِلَيْكَ تَسْتَعِينُ)) الفاتحة (٤)

<sup>(١)</sup> الكرماني - أسرار التكرار في القرآن - تحقيق ودراسة عبد القادر أحمد عطا - ط ٢ - دار الانصاف - القاهرة - ١٩٧٦ - ص ٨١  
<sup>(٢)</sup> ابن جماعة - كشف اللعان في التشابه من اللان - تحقيق د. عبد الحميد حلف - ط ١ - دار الفؤاد - المنصورة - ١٩٩٠ - ص ١٧٧

أو كما فى قوله تعالى :

((وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ))  
الأعراف (١٦٧)

فجاء تقديم (أنفسهم) مع النفي لاستحضار هذا العجز عن نصرة النفس ، فكيف بنصره غيرهم ؟! ، وكقوله تعالى :

((خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ)) النور (٧)

فجاء تقديم الحال (خشعا) بصيغته وبنائه اللغوى ليرسم صورة حية ماثلة للعين لهؤلاء الفئة وهم بهذه الحالة النفسية والذلة المرسومة فى أبصارهم ، فكان التقديم للاهتمام بإبراز هذا المشهد ..

أما إذا صاحب الاستفهام التقديم ، فإن ذلك يكون لغرض بلاغى دقيق ، وهو سوق الإنكار والتوبيخ مع غرض التقديم ، كقوله تعالى :

((قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا)) الأنعام (١٤)

وقوله عز وجل :

((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ))  
الأنعام (٤٠)

ففى هذا التقديم مزية بلاغية لا نجدها فى غيره ، " وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أليكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأليكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شئ

من ذلك إذا قيل : ألتخذ غير الله وليا ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك" (١).

وقد يأتي التقديم والتأخير في سياق آية واحدة ، لغرض بلاغى اقتضاه الحال ، كما فى قوله تعالى :

((لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) البقرة (١٤٣)

قال الزمخشري : "فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرها ، قلت : لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الاسم . وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم (٢).  
بينما جاء التقديم والتأخير فى آيتين متباعدتين ، كما فى قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) الروم (٢٧)

وقوله تعالى :  
((قَالَ رَبِّ إِنِّي مَكُونُ لِمَىٰ أَهْوَىٰ مِنْهُ خَلَقْتُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا))  
مريم (٩٠-٨)

فقال جل شأنه : (وهو أهون عليه) فى سورة الروم بتأخير (عليه) -  
وقال : (هو على هين) فى سورة مريم بتقديم (على) .

(١) - عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - تحقيق الشيخ محمود شاكر - المطبعة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٠ -

قال الزمخشري : "هناك قصد الاختصاص ، وهو محزه فقيل (هو على هين) وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هيم (شيخ فاني) - وعافر ، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص . كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى"<sup>(١)</sup>.

ومن تبين السياقات في التقديم والتأخير ، ما جاء من تقديم ضمير المخاطب وتأخيره في قوله تعالى :  
 ((وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)) الأنعام (١٥١)

وقوله تعالى :

((وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ))  
 الإسراء (٣١)

فقال في الأنعام (ترزقكم وإياهم) لأنه خطاب للفقراء ، أي : لا تقتلوهم من فقر بكم ، أما قوله : (ترزقهم وإياكم) فهو خطاب للأغنياء ، أي خشيّة إملاق - فقر - يتجدد لكم بسببهم .<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> نوه ٤٧٦/٣

<sup>(٢)</sup> كشف الممان . ١٦٩

---

## الفصل الثانى

### إعجاز الوصف

إذا كان الوصف معدوداً من التواضع إلا أنه يقوم بأداء وظيفة حيوية لإبراز المعنى قويا وواضحا .. والوصف لا يأتي إلا بكلمة مناسبة يقتضيها السياق ، وهو حينئذ لا يعد ثانويا أو فضلة من فضلات الجملة ، وهذا يظهر جليا في سياق القرآن حيث نجد الكلمة الواصفة قد تبوأ مكان الإعجاز في مقامها ، فالوصف بالإحسان له موضع غير موضع الوصف بالإيمان أو التقوى أو العلم أو التعقل ، وكلها من مواضع الحمد والتعظيم ، والوصف بالإنفاق له موضع مغاير للوصف بالكفر أو الضلال أو نحو ذلك ، وكلها من مواضع الذم وأعراض التحقير ، وكذلك الوصف بغرض البيان أو التوكيد والتخصيص ونحوه له مواضعه التي يحددها السياق ويبرزها المقام ، وهو ما نبينه في هذه الوقفة بعد الاستعانة بالله ..

#### المدح والتعظيم

تختلف الصفة باختلاف الموصوف واختلاف المقام الذي ذكرت فيه ، فقد جاء الوصف للفظ الجلالة في مواضع عديدة يحمل دلالات مختلفة ، فيقول تعالى :

((يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ، وَيرْزُوا لله الواحد القهار))  
(إبراهيم ٤٨)

فجاء الوصف بالوحدانية والقهر ، وهو مناسب للمقام ، حيث نتحدث الآية عن يوم القيامة وهولها وتبدل الأرض والسماوات ، وبروز الخلق لله ، والوحدانية هنا وصف جليل أبلى من غيره ، فيه دلالة على تفرد الخالق بملكه وتحكمه فيه دون منازع ، وجاء وصف (القهار) لإبراز هول الموقف وبيان قدرة الله تعالى على تغيير كل شيء وإيجاد كل شيء .

وقد جاء نفس الوصف في نفس المشهد والموقف في آية أخرى ، حيث يقول تعالى :

((يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) غافر (١٦) .

وفي موضع آخر جاء وصف مغاير اقتضاه السياق ، يقول تعالى :

((تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)) الزمر (١)

فالمقام هنا يتحدث عن تنزيل الكتاب - القرآن الكريم ، والمناسب لذلك : العزة والحكمة التي اقتضت التنزيل وما اشتمل عليه من حكم وإحكام ، والإشارة إلى أثره البالغ في معالجة حياة البشر في كافة نواحيها ، وهو العزيز ، أي القوى الذي لا يُغلب ، فلا يُغلب كتابه ولا يضاهي ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد جاء في غير موضع وصف لفظ الجلالة في سياق الحديث عن تنزيل الكتاب بصفات أخرى ، كقوله تعالى :

((حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَهٌ مَصِيرٌ)) غافر (٢-١)

فجمع هنا العلم إلى العزة ، وبالفق العليم ، وهذه الصفة تحمل سببا من أسباب تنزيل الكتاب ، فهو - سبحانه - يعلم أحوال خلقه ، ويعلم ما يصلحهم ، وكل ذلك في الكتاب المنزل .. وأتى بصفات أخرى : المغفرة والتوبة وشدة العقاب وطول التفضل ، وموقع هذه الصفات في سياق الحديث عن الكتاب المنزل ، فيه إشارة إلى أثر التمسك بالتنزيل والعمل به ، فيشمل الترفع (المغفرة والتوبة والتفضل) والترهيب (شديد العقاب) وقوله : (غافر



الذنب وقابل التوب شديد العقاب) هي كالنعت للمعرفة إذا اعتبرنا إضافتها لفظية ، "ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سييويه : إن كل ما إضافته غير محضة - يجوز أن تجعل محضة ، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة ، وقال الزجاج : إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البذل . وروى عنه أنه جعل غافر وقابل مخفوضين على الوصف وشديد مخفوض على البذل" <sup>(١)</sup> ويقول تعالى واصفا نفسه - سبحانه بالرحمة :

((حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) فصلت (٢-١)

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على طريقة المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم . والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله - عز وجل <sup>(٢)</sup> . وقد يجمع بين الحكمة والعلم دون لفظ الجلالة في الصفة والموصوف في سياق الحديث عن القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

((وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) النمل (٦)

وقد يأتي وصف لفظ الجلالة بكلمة رب العالمين ، وقد جاءت في الكثير من لمواضع كقوله تعالى : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) الفاتحة

<sup>(١)</sup> فتح القدير ٦٣١/٤

<sup>(٢)</sup> تكملة ٨٠/١-٨١

والرب مصدر رب يرب ، ثم جعل صفة كعدل وخصم ، وأصله رباب وجره على الصفة أو البذل ، وقرئ بالنصب على إضممار أعنى ، وقيل على النداء ، وقرئ بالرفع على إضممار هو <sup>(١)</sup> .  
وقد جاء هذا الوصف برب العالمين مسبوقا وملحوقا بالرحمة في قوله : (الرحمن الرحيم) وهذا مناسب لافتتاح القرآن الكريم وبداية المصحف .. وفي ذلك السياق جمع بين لفظ الجلالة ولفظ الربوبية ، ليجمع بين التوحيد وترسيخ العقيدة ، وبين التربية والرعاية والعناية ..  
وقال في موضع آخر :

((فَقَطِّعْ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) الأنعام (٤٥)

فجاء الوصف برب العالمين تذكيرا بالنعمة التي وقعت باستتصال شأفة الظالمين ، ففي ذلك لطف من الله ورعاية بعباده وعناية بهم ، ولذلك صدرت الجملة بالحمد ، وهو ما لم يأت في مواضع أخرى ذكر فيها (رب العالمين) ، كقوله تعالى :

((وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) النمل (٤٤)

فالمقام مقام استسلام وإذعان لله ، ففيه إصلاح العقيدة ولزوم التوحيد فجاء لفظ الجلالة (الله) ، وفيه إظهار الربوبية والتربية والتعذيب فجاء ذكر الرب وهذه بلاغة أسلوبية فيها إيتار على : (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ) أو (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

<sup>(١)</sup> المعمرى - البيان في إعراب القرآن - ط ١ - المكتبة التوفيقية - القاهرة - ١٩٧٩ - ٥/١

وقد يأتي الوصف للفظ الجلالة بـ (الملك الحق) ، وذلك في موضعين من القرآن الكريم ، الأول في قوله تعالى :

((وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ..)) طه (١١٣-١١٤)

والموضع الثاني في قوله تعالى :

((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)) المؤمنون (١١٥-١١٦)

والوصف بالملك الحق يناسب مقام الحديث عن اليوم الحق ، يوم القيامة وما فيه من وعيد نص عليه القرآن ، فهذا كله حق ، ولا يستطيعه إلا أحكم ملكه وملاك زمام خلقه وكونه ، ولذلك جاء الوصف بالملك لأنه لا يملك هذا إلا الله ، وهو الموصوف أيضا بالحق .

وفي موضع آخر وصف (الله) بالملك القدوس العزيز الحكيم ، وذلك في قوله تعالى :

((يَسْبِغُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) الجمعة (٢-١)

(الملك القدوس العزيز الحكيم). قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات على أنها نعت لـ (الله) ، وقيل : على البذل ، والأول أولى ، و (الملك القدوس) أى الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص<sup>(١)</sup>.

فناسب الوصف فى (الملك القدوس) قوله فى صدر الآية الكريمة (يسبح) وفيها أيضا التنزيه لله عن الشريك والنقص ، فأحيط لفظ الجلالة (له) بهذا السابق ، وذلك اللاحق ، وجاء وصف العزيز ليزيل عن الأذهان حاجة الله فى هذا التنزيه من أحد من خلقه ، فهو عزيز بذاته وصفاته ، وهو حكيم حكمة مطلقة .. هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى ، كانت هذا الصفات المجيدة تمهيدا وتناسبا مع ما يأتى بعدها ، ألا وهى مهمة الرسول والكتاب المنزل معه .. ولذلك جاءت ثلاث جمل متتابعة فى موقع الصفة للرسول ، وهى (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) ، وهذه الحكمة مما اشتمل عليه الكتاب المنزل ، وقد ناسب ذلك وصف الله تعالى بالحكيم سابقا . وربما جاء وصف الله - تعالى - باسم الموصول (الذى) ، وذلك فى مواضع عديدة ، كقوله تعالى :

((إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْكُرَاتٍ بِأَمْرِهِ ..)) (الأعراف ٥٤)

وقوله تعالى :

((إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ ..)) (يونس ٣)

<sup>(١)</sup> فتح القدير ٢٧٥/٥ ، ٢٩٩

وقوله تعالى :

((اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمُوتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ  
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ..)) الرعد (٢)

وقوله تعالى :

((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ  
مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ ..)) إبراهيم (٢٢)

وبالنظر إلى اسم الموصوف (الذى) هنا ، نجد أنه قد جاء في مقام تعظيم الخالق في مجالات تعجيزية وفيها بيان قدره الله المطلقة ، فتلين القلوب للإيمان به .. فكأنه قال : الله الذى خلق ورفع وأخرج الثمر وجعل الشمس والقمر ... فهل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ، والله تعالى أعلم .

وقد جاء الوصف برب العالمين في موضع آخر في سياق (تبارك الله) ، يقول تعالى :

((اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ))  
عنقر (٦٤)

وفي موضع آخر في سياق (تبارك) أيضا قال جل شأنه :

((فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) المؤمنون (١٤)

ففى هذا الموضع من سورة المؤمنون توالى الآيات تتحدث عن خلق الله للإنسان ومراحل خلقه وتطوره من سلالة من طين ثم نطفة ثم من علقة ، فناسب ذلك قوله : (أحسن الخالقين) .. يقول تعالى :

((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ))  
المؤمنون (١٢-١٤)

أما فى سورة غافر ، فالآية تتحدث عن الربوبية من فضل الرعاية والعناية والنعم من قرار الأرض وبناء السماء وحسن التصوير والرزق من الطيبات ، فناسب ذلك أن يقول : (رب العالمين) ..

وفى هذه السورة الكريمة - غافر - ختمت ثلاث آيات على التوالى بقوله : (رب العالمين) وليس له فى القرآن نظير ، هذه الآية المذكورة سابقا رقم (٦٤) ، والآيتان بعدها فى قوله تعالى :

((هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . هَلْ أُنَبِّئُكُمْ أَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ))  
غافر (٦٥-٦٦)

ومسبب التكرار - والله أعلم - هو : تأكيد ربوبية الله للعالمين على أسماع الكفار جميعا ، لا سيما أهل التثليث ثلاث مرات <sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> أسرار التكرار فى القرآن ص ١٨٧

### وصف القرآن الكريم

قد تحمل الآيات ذكر القرآن بلفظ الكتاب أو بلفظ القرآن ، ومن ثم يتغير الوصف تبعاً لتغير الكلمة .. وإذا جاءت كلمة الكتاب موصوفة ، فإن أكثر الوصف يكون بكلمة (مبين) ، كما في قوله تعالى :

((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)) الشعراء (٢)

((طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)) النمل (١)

((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)) القصص (٢)

وجاء الجمع بين الكتاب والقرآن في آية واحدة ، مع وصف القرآن بالمبين ، وذلك في قوله تعالى :

((الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)) الحجر (١)

وقوله تعالى : ((إِنْ هُوَ إِلَّا نَذْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)) يس (٦٦)

ولعل وصف الكتاب والقرآن بالمبين في هذه المواضع للدلالة على بيانه ووضوحه الشامل لجميع آياته وسوره ، ولذلك جاء في (الشعراء) في الآية الثالثة : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) . وفي هذا توبيخ للكافرين : إذ كيف يكفرون به مع وضوحه وبيانه ..

وفي النمل جاء في الآية الثانية ذكر الهداية بعد البيان والوضوح : (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) وفي القصص جاء في الآية الثالثة وما تتبعها ذكر نبأ موسى وفرعون : (نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

أى : فمن دلائل بيانه وصدقه أنه يحكى أحداث الغيب الموهل فى القدم ، ومنه جحود فرعون على الرِّغم من سطوع الحق ، وفى آية يس جاء ذكر الشعراء قبلها ، فقال : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) فجاء وصف القرآن بالمبين ، ليقول لهم : إن هذا القرآن بين واضح بأنه ليس بشعر ، وأنتم أعلم الناس بالشعر وفنونه .. وفى موضع آخر جاء وصف الكتاب بالمستبين لما فى قوله تعالى :

((وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)) السافات (١١٧)

وليس المراد بالكتاب هنا القرآن ، وإنما التوراه ، والضمير فى (واتيناهما) يعود على موسى وهارون عليهما السلام .

وجاء وصف الكتاب بالحكيم فى قوله تعالى :

((الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . إِنْ كَانَ لِلنَّاسِ عَاجِبٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)) يونس (٢٠١)

ووصف الكتاب بالحكيم هنا ، لإرشاد العقول الضالة إلى حكمة اختيار النبى ﷺ ، فقد تعجبوا من أن يكون الرسول بشرا ، فلم يكن كلامهم حكيما ، ولا تفكيرهم متزنا ، وكأنه قال : كونوا حكماء وعقلاء فى تفكيرهم ، كيف تطلبون أن يكون الرسول ملك وأنتم بشر ؟!

وجاء وصف الكتاب بالحكيم فى موضع آخر ، فى قوله تعالى :

((أَلَمْ . تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)) لقمان (٣٠١)



ولعل السبب في ذلك - والله أعلم - أن هذه الآية الكريمة والوصف الحكيم للقرآن ، قد جاء بين خاتمة سورة الروم ، وفيها بيان عن تكذيب الكافرين للقرآن وبين بداية سورة لقمان وفيها بيان أثر القرآن من هدى ورحمة للمؤمنين .. كذلك - أيضا - كان آخر ما ختمت به سورة الروم قوله تعالى :

((وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ))

فجاء وصف الكتاب بالحكيم في بداية سورة لقمان أبلغ ما يكون الوصف والتناسب مع خاتمة سورة الروم ، لأن المعنى : إن هؤلاء الكافرين "قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم ، وهذا يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر ، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه فالعكس ، فالأول بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور والله المستعان" (١) وقد أتى وصف القرآن بالحكيم أيضا في قوله :

((يَس . وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)) يس (١-٣)

ولعل صفة الحكمة قد جاءت هنا لتناسب سورة فاطر قبلها ، حيث يقول

تعالى : ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا . وَلَوْ يُوَادُّ اللَّهُ النَّاسَ يَمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُورِهِمْ دَابَّةً وَّلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)) فاطر (٤٤-٤٥)

(١) السعدى - تفسير (يسر الكريم الرحمن في تفسير كلام القرآن) - تقديم الشيخ عبد الله بن عقيل والشيخ محمد العثيمين - دار الحديث - القاهرة - ٢٠٠٢ - ص ٦٧.

فالأيتان تحملان الحدث على التعقل والحكمة في النظر إلى عاقبة السابقين ، وتثبت الآية الأخيرة حكمة الله تعالى - في تصريح شئون خلقه ، فهو - جل شأنه - لا يعاجلهم بالمؤاخذة ، وإلا فنيست الخلائق ، ولكن يؤخرهم إلى يوم البعث .

وقد تأتي كلمة (القرآن) في مواضع عديدة من الآيات الكريمة ، ولكن بأوصاف أخرى غير أوصاف الكتاب السابقين ، كقوله تعالى :

((وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)) الحجر (٨٧)

جاء وصف القرآن هنا بالعظيم للفت الانتباه إلى ما اشتمل عليه القرآن من صفات الكمال والامتناع عن التشبيه أو التحريف ، وهو أنسب وصف في هذا المقام لقوله في صدر الآية : ((وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ)) ، ولأنه يتعرض بالكلام للذين أقسموا على بطلانه ، وجعلوه عضنين ، أي : أصنافا ، منهم من يقول سحر ، ومنهم من يقول كهانة ...

بينما جاء وصف القرآن في موضع آخر بوصف مغاير لما سبق ، كما في قوله تعالى :

((حِينَ ، وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَاوَلَاتِ حِينَ مِّنَاصٍ)) ص (١-٣)

فوصف القرآن هنا بـ (ذو الذكر) أي التذكير للعظة والاعتبار وهذا يناسب حال الكافرين ، فقد استكبروا وامتنعوا ، فذكرهم القرآن بحال الأمم السابقة . (كم أهلكنا ...) ، فلما وقع عليهم الهلاك استغاثوا ولكن بعد فوات الأوان (ولات حين مناص) .

وقد جاء وصف القرآن بالمجيد في قوله تعالى : **((ق) وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ . بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَنْذَارٌ مِمَّا وَكُنَّا قُرْآنًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ))** ق (٤٠١)

وقوله تعالى :

**((بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ . بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ))** البروج (٢٠-١٩)

فوصف القرآن بالمجيد يعنى أنه لا يناله تحريف ولا تبديل ، وهو مصون عن التغير ، وفى هذا الوصف تناسب مع قوله تعالى بعد ذلك : **(وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ) ق (٤) وقوله : (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) (البروج ٢٢) ، فوصف - أيضا - الكتاب وهو اللوح بأنه حفيظ ، ووصف اللوح بأنه محفوظ ، فلا يتغير ولا يتبدل .. وقال الفخر الرازى : "هذا القرآن مجيد مصون عن التغير والتبدل ، فلما حكم فيه بمسعادة قوم وشقاوة قوم ، ويتأذى قوم من قوم ، امتنع تغييره وتبدله ، فوجب الرضا به ، ولا شك أن هذا من أعظم موجبات التسلية"<sup>(١)</sup> وقد جمعت آية الواقعة بين القرآن والكتاب فى قوله تعالى :**

**((فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ))** الواقعة (٧٥-٧٤)

القسم بمواقع النجوم .. والمقسم عليه القرآن الكريم ، والنجوم بمواقعها العالية التى لا تدرك ، تلفت الانتباه إلى علو قدر القرآن وعظمته التى لا يدرك كنهها .. وهذا العلو والقدر الرفيع يشير إلى علوه ورفعته على جميع الكتب ،

<sup>(١)</sup> التفسير الكبير ١١/١١٦

ويشير إلى علو ما فيه من أخلاق ، ويشير إلى علو منزلة صاحب القرآن ، "وحكى الواحدى عن أهل المعانى : أن وصف القرآن بالكريم ، لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التى تؤدى إلى الحق فى الدين . قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . (فى كتاب مكنون) أى مستور مصون ، وقيل : محفوظ عن الباطل ، وهو اللوح المحفوظ"<sup>(١)</sup>

أما وصف القرآن بالعربى ، فقد جاء فى مواضع عديدة ، كتوله تعالى :

((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) يوسف (٢)

((كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) فصلت (٣)

هذا الوصف مدح للعربية لأنها شرفت بنزول القرآن الكريم بها ، وليس مدح للقرآن بأنه عربى ، وهو وصف - أيضا - يفيد مزيدا من البيان والتوكيد . والله أعلم .

#### وصف الجنة

جاء الوصف فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بهدف مدح الموصوف وتفخيمه أو لإظهار مزية عظيمة غالبية فيه ، وقد جاء وصف الجنة فى الكثير من الآيات القرآنية لنفس الغرض ..

على أن كلمة (الجنة) بصيغة المفرد قد جاءت موصوفة فى اثنى عشر موضعا من جملة خمسة وستين موضعا ، فى حين أن كلمة (الجنات) بصيغة

<sup>(١)</sup> فتح القدير ٢١٣/٥

الجمع قد جاءت موصوفة في سبعة وثلاثين موضعاً من جملة تسعة وستين موضعاً ..

ولعل السبب في ذلك أن ذكر الجنة بصيغة الإفراد لإرادة عمومها ومطلقها وإجمالها وهي كثيراً ما تذكر مفردة في مقام المقابلة بينها وبين النار ..

وقد جاءت كلمة (الجنة) موصوفة في أربعة مواضع ويراد بها الحقيقة أو البستان ، وليس جنة الآخرة ، وهذه المواضع هي :

قوله تعالى : ((وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْهُ أَكْثُلُهَا ضَعُفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيْتُوهَ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِمَّنْ نَجَّلَ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ))  
(البقرة ٢٦٥-٢٦٦)

فالجنة في الموضعين المذكورين هما من قبيل المثل الذي يضربه الله تعالى - للمنفق الذي يبتغي مرضات الله .. (جنة ربوة) ، والمنفق الذي يمن ويؤذي بصدقته .. ومن بلاغة وصف الجنة الأولى أنها جاءت بشبه الجملة (بربوة) وهي المكان المرتفع ، لتكون أنقى للهواء وأغزر للماء ، وفي ذلك تخييل حسي يرتفع بالمنفق إلى مكان عال يتمتع فيه بطيب الحياة ، ثم يجد العيش الرغد (أكلها ضعفين) .. أما الجنة الأخرى ، فهي مثل ضربه الله لذلك الذي أصابته الحمرة والفجعة لاحتراق جنته بعد ازدهارها ونبوغها في الوقت الذي كبرت فيه سنه وضعفت ذريته .. وقد توالى الكلمات في رسم الصورة بتدرج يوحى بمدى تلك الفجعة .. الكبر - ذرية ضعفاء ، ثم يعلو إيقاع الكلمة

وتتبدد الوطأة بقوله : (إعصار) ثم (نار) ثم (فاحتترقت) ، وهذا كله بعد أن كان : النخيل والأعناب والأنهار الجارية والثمار الشاملة لكافة الأنواع .  
ووصف جنة الدنيا بالنخيل والأعناب هو وصف جارٍ في القرآن الكريم حتى في مجئ كلمة (الجنات) مجموعة وذلك لمعايشة العرب لهذه الألوان ومعرفتهم بها وأهميتها في حياتهم كقوله تعالى :

((وَمِنَ النَّخْلِ مِمَّنْ طَلَعَهَا قُتُونٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونِ  
وَالرُّمَّانِ ...))

(الأنعام ٩٩)

وقوله تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ  
وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ...)) (الأنعام ١٤١)

وقوله تعالى :  
((وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَّرْعٌ وَنَخِيلٌ ...))  
(الرعد ٤)

وقوله تعالى : ((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)) (المؤمنون ١٩)

وقوله تعالى : ((وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَقَجْرْنَا فِيهَا مِنِ الْعُيُونِ))  
(يس ٣٤)

وقد جاء الموضعان الآخران لكلمة الجنة التي يراد بها البستان في قوله تعالى :

((وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا)) (الإسراء: ٩٠-٩١)

(جنة من نخيل وعنب) ، فالوصف البارز في ذكر الجنة هنا ، أنها تشتمل على النخيل والعنب ، وقد ذكر العنب هنا بجمع القلة لمناسبة مقام الأفراد (أنك) - (جنة) ، بينما تذكر في مقام الكثرة (جنات) بجمع الكثرة كالألية السابقة في سورة (يس) وغيرها ..

ولم يأت لفظ (العنب) بجمع القلة إلا في موضعين : هذا الذي ورد في سورة الإسراء ، والموضع الآخر في سورة (عيس) في قوله تعالى :

((فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا)) عيس (٢٨)

ولعل تأويل ذلك أن المراد ذكر نعم الله تعالى بجنسها العام ، فقال (حبا) ولم يقل مثلا (حبوبا) ، كذلك العنب والقضب والزيتون والنخل ، وكقوله تعالى :

((وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ)) الأنعام (١٤١)

فأراد جنس هذه الأنواع ، بينما إذا ذكر النخيل دون النخل ، فإن ذلك يكون لتحريك النظر والتأمل إلى ثمر النخيل . والله تعالى أعلم .  
وجاءت كلمة الجنة موصوفة ويراد بها البستان في قوله تعالى :

((أَوَلَيْقَىٰ إِلَهِهِ كُنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ..)) الفرقان (٨)

فألوصف للجنة بقوله : (يَأْكُلُ مِنْهَا) فيه رسم لصورة الجنة التي أرادها المجادلون المكذبون للنبي ﷺ ، وهي أن تشمل على كافة أنواع الثمار ، فلا يلجأ إلى المشى في الأسواق طلباً للرزق .

#### \* وصف الجنة باسم الموصول

جاء وصف الجنة في القرآن الكريم بلفظ (التي) سواء دُعي إفرادها أو جمعها ، وقد أتى هذا الوصف مرتبطاً بالفعل (وعد) ، كقوله تعالى :

((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)) (الرعد ٣٥)

وقوله تعالى :

((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ..)) محمد ١٥

فجاءت كلمة الجنة على الإفراد والوصف بـ (التي) ، وفي ذلك استحضار لما ذكر من مشاهدتها ، وبناء الفعل (وعد) لئلا ينفرد (المتقون) لينصرف الذهن لهذا الخلق ، وهو التقوى .. وقد جاء الوصف (بالتى) للجنات مجموعة ، لكن بصيغة البناء للمعلوم ، وذلك في قوله تعالى

((جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ..)) مريم ٦١

فكان في التعبير بكلمة (بالغيب) استعاضة عن بناء الفعل بصيغة المجهول ، وجاء اسم الموصول (التي) رابطاً معنوياً بين جنات عدن ووعد الرحمن .. وجاء التعبير بكلمة : (الرحمن) وإلحاق (عباده) بها لشمول الرحمة



لهؤلاء العباد ، وقد شرفهم بإضافتهم إليه ، فكان لهم رحمة خاصة مبالغاً فيها ، ولذلك أثر هذا التعبير على غيره ..  
وجاء اسم الموصوف (التي) رابطاً بين جنات عدن وبين والوعد بصيغة المعلوم ، في سياق الدعاء ، وذلك في قوله تعالى :

((رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) عاف (٨)

وقد يأتي الوصف للجنة ليرسم بُعد مكانتها وعلو منزلتها ، فيرتفع بالنفوس وقيمتها حتى تعلو هممتها ، كقوله تعالى :

((فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)) الحقة (٢٢)

((وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَاطَمَعُ . لِسَعِيهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)) الغنية (١٠)

فجاء الربط في الآيتين بين الرضا والجنة العالية ، فهذا سبيل إلى ذلك ، والتعبير بالمجاز في قوله : (عيشة راضية) والمقصود مرضية ، مبالغة قوية لإظهار الرضا وتمكنه من النفوس ، فظهر شخصاً في العيش ، لينصب الرضا عليه فكيف بمن فيه .

وقد يأتي وصف الجنة ليرسم مشهد التفاف الأشجار وأغصانها وتراكم ثمارها ، كما في قوله تعالى :

((وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدِيدًا . وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا . وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)) النبا (١٦-١٧)

فتدرج المشهد من ذكر السبع الشداد - السموات - ثم وجه النظر إلى ما فيها من سراج - أى شمس - تتوهج بالنور والحرارة ثم ما يجرى تحتها من المعصرات وهى "المحائب ذوات الأعاصير ، فإن المحائب إذا عصرتها لا بد وأن ينزل المطر منها .. و (من) ههنا بمعنى الباء والتقدير ، وأنزلنا بالمعصرات أى الرياح المثيرة للمحائب"<sup>(١)</sup>.

ثم الماء وهو ينصبّ صبّا - ثجاجا - وكل ما ذكر هو من عوامل إخراج الحب والنبات والجنات الملتفة ..

فالمشهد قد اشتمل على الأصوات كما فى صوت المعصرات وثج الماء - واشتمل على الثبات والحركة .. فالنبات يتمثل فى اشتداد السماوات السبع ، والحركة تبدو فى توهج الشمس بنورها الممتد وحركة المعصرات وثج الماء .. واشتمل المشهد - أيضا - على الألوان المتمثلة فى الحب والنبات والجنات ..

وكل هذه الأجزاء تتراص وتتربط فى تتابع وتناسق جميل ، فكان تتمه المشهد واستكمال صورته فى الوصف بكلمة : (ألفافا) لتكون خاتمة المشهد ونهاية هذه اللوحة ، ووصولها إلى الهدف والغاية وهى تتمثل فى الجنات والحدائق الملتفة المتلاصقة فى تلاحم وتكاثر وكأنها لفت كل الأجزاء الصوتية والحركية واللونية فى هذا المشهد الأخير ، فلا يقوم غير هذه الكلمة (ألفافا) بتصوير المشهد وحسن الوصف .

وكثيرا ما يأتى الوصف للجنة فى القرآن الكريم بالجملة الفعلية : (تجرى من تحتها الأنهار) فيفيد دوام النعيم واستمراره ورسم حركة جرى الماء فى

<sup>(١)</sup> الرازى - التفسير الكبير - ط ٣ - دار إحياء التراث العربى - دمشق - بيروت - ١٩٩٩ - ١١ / ١١

تلك الأنهار ، وقد جاء موضع وحيد في القرآن الكريم في وصف الجنة دون استخدام حرف الجر (من) ، وذلك في قوله تعالى:

((وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ أُولَئِكَ الْمُتَأَخِّرُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)) (التوبة (١٠٠))

ولعل مجيء جملة الوصف (تجري تحتها) خالية من حرف الجر (من) مبالغة في تعظيم المنزل في هذا المقام .. وقد يكون حذف الجر هنا دل على توسع النعيم وشمول جرى الأنهار تحت جنة أصحابها. جعلنا الله من أهلها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فالمشهد هنا خاص بدرجة رفيعة لقوم ذوي مكانة خاصة عظيمة ، قد بلغوا الغاية في الإيمان والتقوى ، فهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وهم السابقون – أيضا – الذين اتبعوا سيرتهم ونهجهم بإحسان ممن جاءوا بعدهم على مر العصور .

#### الصراط المستقيم

وصف الصراط بالمستقيم فيه مدح للمنهج وطريق الحق ، فهو موصل إلى الله وجنته ، معروف بالوضوح والهداية ، وقد جاء الوصف في غير موضع من القرآن الكريم ، حيث يقول تعالى :

((إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ..)) (الفاتحة (٧-٦))

قال الزمخشري – رحمه الله – هلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ؟ قلت : فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير ، والإشعار بأن

الطريق المستقيم بيانه وتفسيره : صراط المسلمين ، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه واكده<sup>(١)</sup>

وقوله سبحانه : ((يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) البقرة (١٤٢)

وقوله تعالى : ((وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) البقرة (٢١٣)

وقوله تعالى : ((وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) الحج (٥٤)

وقد جاء التعبير في آية الحج باسم الفاعل لهاد للدلالة على الاستقبال وترتيب هذه الهداية على أمور سابقة ذكرت قبل هذا في قوله تعالى : ((وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ..)) ، بينما جاء التعبير في آيتي البقرة للدلالة على الحال والاستمرار المترتب على الماضي .. وآية البقرة الأولى تحدثنا عن وقوع الهداية ووقوع تحول القبلة فأخبر المولى عز وجل أن هذه هدايته ، فيقول تعالى :

((سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) البقرة (١٤٢)

وفي الآية الأخرى يقول تعالى :

<sup>(١)</sup> الكشاف ١/١٥-١٦

((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اُخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ يَغْيَا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))  
البقرة (٢١٣)

وفى أكثر من موضع يصف الحق سبحانه المسجد أو البيت أو الشجر بالحرام ، فتصير صفة مدح وتعظيم وتكريم بجعل له حرمة عظيمة وذلك فى قوله تعالى :

((قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) البقرة (١٤٤)

وقوله تعالى : ((ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) البقرة (١١٦)

والمقصود بذلك المصلى الذى يصلى فيه الناس ويكون موضع سجودهم ، وقد يأتى الوصف بالحرام للبيت ، وذلك فى موضعين ، الأول فى قوله تعالى :

((وَلَا آمِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا)) المائدة (٢)

والثانى فى قوله تعالى :

((جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ)) المائدة (٩٧)

والمقصود بذلك فى هذين الموضعين : البيت نفسه ، أى الكعبة المشرفة ، ولذلك قال (آمين البيت الحرام) أى قاصدين عين الكعبة ، بينما قال فى الصلاة (شطر المسجد) أى جهته والله تعالى أعلم .

وعظم المشعر فوصفه بالحرام تكريما وتشريفا ، فقال :

((فَإِذَا أَفْضُتُمْ مِنْ عَرَقاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ))  
البقرة (١٩٨)

وعظم الشهر الحرام بقوله :

((الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ)) البقرة (١٩٤)

#### \* المدح والتعظيم في وصف المؤمنين

جاء وصف المؤمنين في كثير من المواضع حاملا المدح لهم بحبهم لله وصدقهم معه ، أو وصفهم بالاصطفاء أو الإخلاص أو الصلاح ، وذلك حسب ما يقتضيه السياق ، فيقول تعالى:

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) المائدة (٥٤)

(يحبهم) في موضع جر صفة لقوم ، (ويحبونه) معطوف عليه ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المنصوب تقديره : وهم يحبونه . (أذلة) و (أعزة) صفتان أيضا ، (يجاهدون) يجوز أن يكون صفة لقوم أيضا ، وجاء بغير واو كما جاء أذلة وأعزة (١).

فجاء الوصف بالحب بين القوم وربهم ، لأن المقام مقام حب الله ، وهذا الحب الإلهي هو الذي منعهم من الارتداد والجحود كما فعل غيرهم .. ثم جاءت صفتهم : أذلة على المؤمنون أعزة على الكافرين . وهذه من دواعي الحب لله ، ومن صفات الجهاد في سبيل الله ، وهو لا يقوم إلا على حب الله وكذلك قال : **(ولا يخافون لومة لائم)** وقال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف "كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذليل والتواضع . والثاني : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم<sup>(١)</sup> .

وفي موضع آخر جاء وصف المؤمنين بالحب ، ولكنه مقيد بالتطهر ، كما في قوله تعالى :

**((لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَْسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ))**  
التوبة (١٠٨)

وعلة الوصف هنا أنه مدح للمؤمنين بطهارة قلوبهم من النفاق ونقاء سريرتهم وإخلاصهم ، في مقابل ما حملته سياق الآيات من ذم للمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر والنفاق ، وكان ومن مظاهر ذلك أن بنوا مسجدا سماه الله - سبحانه - بمسجد الضرار ، فجاء النهي في صدر هذه الآية : **(لا تقم فيه أبدا)** وقوله **(لمسجد)** بالتوكيد باللام والتكثير يفيد التعظيم في سياق مجازي في قوله **(على التقوى)** جعل قوائمه وأساس بنيانه التقوى .

وجاء وصف المؤمنين بالصدق في قوله تعالى :

<sup>(١)</sup> الكشاف ٦٤٨/١

((وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا. مَنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ، وَمَا يَكُنْوا يُبَدِّلًا)) الأحزاب (٢٢-٢٣)

فجاء وصفهم بالصدق هنا دون غيره من الصفات الحميدة ، لإبراز موقف الوفاء والثبات القائم على الصدق مع الله ، وذلك عندما رأوا أحزاب الكافرين مجتمعين في الخندق ، فثبتوا على عهدهم وميثاقهم مع الله ، وقالوا (وصدق الله ورسوله) فجاء وصفهم بالصدق .. وجاء الأسلوب مسوقا بالتأكيد عن طريق تكرار لفظ الجلالة والرسول (الله ورسوله) ، وأسلوب القصر والحصر عن طريق النفي والاستثناء .

وهذا الموقف الإيماني الصادق ، كان في مقابل موقف الغدر ونقض العهد مع الله ثم تخلو عن الرسول ﷺ وهو ما بينه في قوله :

((وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا . وَيَسْتَأْذِنُ قَرِيبٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)) الأحزاب (١٢-١٣)

فقال المؤمنون : (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) وقال المنافقون : (لا مقام لكم فارجعوا) - (إن يريدون إلا فرارا) .

ويأتى وصف المؤمنين بصفات أخرى غير ما سبق ، فقد يصفهم الحق سبحانه بالصلاح ليلفت الذهن إلى أثر الصلاح .. صلاح النية والعقيدة والقول والعمل ، أو بالاصطفاء أو بالإخلاص ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى :



((وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)) المائدة (٨٤)

فوصف القوم بالصلاح جاء مترتباً على أسبابه المتقدمة من صفات الصالحين ، وهي الإيمان بالله تعالى وما جاء من الحق والاستقحام في صدر الآية (وَمَا لَنَا ..) يفيد الإنكار والاستبعاد ، وقوله تعالى :

((وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)) الأنبياء (١٠٦-١٠٥)

فأضاف العباد إليه مباحاته في ضمير : (عباد) وهي إضافة تشريف وتعظيم ، ووصفهم بالصلاح هنا قد ناسب ميراث الأرض (سواء كانت الجنة أو أرض الدنيا على اختلاف المفسرين) لأن تقيض الصلاح هو الفساد ، والفساد يهلك الأرض والحراث والنسل .. ومن تناسب الوصف وتناسقه ، أن وصف القوم في آخر الآية بالعبادة (لقوم عابدين) والتعبير باسم الفاعل (عابدين) تغني تأصل العبادة في نفوسهم واستمرارهم عليها .

وقوله تعالى :

((فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)) فصل (١٩)

فقله (في عبادك الصالحين) محمول على ما تقدم من قوله : (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا) ، وعلى ما تقدم أيضا من صفات عباد الله الصالحين من شكر نعمة الله ..

وقد وصفهم بالاصطفاء ، كما في قوله تعالى :

((قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)) النمل (٥٩)

على اعتبار أن الوصف باسم الموصول (الذين) ، فإنه مع جملة صلاته (اصطفى) يعطى دلالة على الموقف الذي نحن بصدده في هذه الآية حتى أثر التعبير بالاصطفاء دون غيره من التقوى أو الصلاح مثلا ، وذلك أن الكلام متصل بما قبله في قوله تعالى :

((فَاتَّخِذْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)) النمل (٥٨-٥٧)

فأمر "بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليه السلام ، وأشياعهم الناجين ، وقيل : هو خطاب للوط عليه السلام ، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه . ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم" (١)

وفي سورة الصافات تكرار الوصف بالمؤمنين ، والمخلصين ، وذلك لتكرار الموقف أو المشهد الذي حمل ذلك الوصف .. فجاء قوله : (عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) أربع مرات :

(١) التكليف ٣ / ٣٧٥

**الأول :** ((سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ)) الآيات (٧٩-٨٢)

**الثاني :** ((سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)) الآيات (١٠٩-١١١)

**الثالث :** ((سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)) الآيات (١٢٠-١٢٢)

**الرابع :** ((سَلَامٌ عَلَى إِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)) الآيات (١٣٠-١٣٢)

فتكرر الوصف بالإيمان في المشاهد الأربعة ، لأن جميعها كانت في مقابلة كفر الكافرين وإنكارهم وجحودهم ، وقد ذكرهم الله جميعا بالمحسنين ، لأنهم لم يقابلوا السيئة بالسيئة بل باللين والإحسان ..

وقوله تعالى : (سلام على نوح في العالمين) (٧٩) ، وبعده : (سلام على إبراهيم) (١٠٩) ثم (سلام على موسى وهارون) (١٢٠) وكذلك : (سلام على إيسا) (١٣٠). ولم يقل في قصة لوط ولا يونس ولا إيليا : (سلام) ، لأنه لما قال : (وإن لوطا لمن المرسلين) (١٢٣) ، (وإن يونس لمن المرسلين) (١٣٩) ، وكذلك : (وإن إيليا لمن المرسلين) (١٢٣) ، فقد قال سلام على كل واحد منهم ، لقوله في آخر السورة (وسلام على المرسلين) (١٨١) .

وقوله تعالى : ((إنا كذلك نجزي المحسنين)) في سائر الرسل . وقال تعالى في إبراهيم : ((كذلك نجزي المحسنين)) بدون ((إنا)) ، ولم يقل ذلك في شأن لوط ويونس . للاكتفاء بما تقدم ذكره ، فكفى عن الثانية <sup>(١)</sup> .

أما وصف عباد الله بـ : ((المخلصين)) ، فقد جاء في ثمانية مواضع من القرآن الكريم ، خمسة في سورة الصافات وحدها .. وموضع في (يوسف) في قوله تعالى :

((كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ))  
الآية (٢٤)

وموضع في سورة (الحجر) ، في قوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأُظِلُّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ))  
الآيتين (٣٩-٤٠)

وموضع في سورة (ص) ، في قوله تعالى :

((قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ))  
الآيتين (٨٢-٨٣)

أما مواضع ((المخلصين)) في سورة الصافات ، فهي في قوله تعالى :

((وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)) (٤٠)

<sup>(١)</sup> انظر : أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٠ - وكشف المعاني ص ٣٠٨

((فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)) (٧٤)

((فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)) (١٢٨)

((سَبِّحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصَلُّونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)) (١٦٠)

((لَوْ أَنَّنَا بَدَّلْنَا نَدَارًا مِّنَ السَّمَانِ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)) (١٦٩)

وبالنظر إلى المواضع الثمانية ، نجد أن وصف العباد بـ (المخلصين) قد جاء في معرض التخلص من موقف سوء وفحش ، أو سلوك جحود وعصيان ، وفي لسان العرب (مادة خلص) : خلص الشيء يخلص خلوصا وخلاصا : إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم . وأخلص الشيء : اختاره . والمخلص : الذي أخلصه الله . جعله مختارا خالصا من الدنس .

#### \* الذم والتحقير

قد يأتي الذم والتحقير في مواضعه من القرآن الكريم لزم شخص أو خلق ، فيظهر في صورة منفرة تأباها النفس السوية وتفر منها .. فجاء وصف القوم بالفاسقين في قوله تعالى :

((إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ))  
توبة (٨٠)

فوصف القوم بالفاسقين ، وكان مقتضى السياق أن يصفهم بالكافرين حملا على ما سبق من قوله : (كفروا بالله ورسوله) . ولكن الوصف بالفسوق

يأتى فى مواقف إيذاء الكافرين للمؤمنين واعتدائهم عليهم ، وهذا ما دل عليه سياق الآيات قبل هذه الآية فى قوله تعالى :

((الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))  
التوبة (٧٩)

وكذلك قوله تعالى :

((وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ))  
الصف (٥)

فلم يكتفوا بعدم الإيمان والاتباع ، ولكنهم عصوا وخرجوا عن الطريق المستقيم وأدوا موسى عليه السلام ، ولذلك وصفهم بالفاسقين<sup>(١)</sup> وقوله تعالى :

((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ<sup>(٢)</sup> وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ))  
المنافقون (٦-٥)

فهذا التصرف المعاكس منهم للرسول ﷺ من تحريك رؤوسهم باستهزاء ومحتزاة (لوا رؤوسهم) وصددهم واستكبارهم ، أدى إلى وصفهم بالفاسقين . وقد يأتى وصف القوم بالفساد وليس بالفسق ، كما فى قوله تعالى :

<sup>(١)</sup> فى اللسان مادة (فسق) الفسق : العصيان ، والترك لأوامر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق وكذلك الميل إلى المعصية  
<sup>(٢)</sup> لواء رؤوسهم : حركوها فى استهزاء .

((أَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)) العنكبوت (٢٩-٣٠)

فطبيعة الأفعال هنا وتعددتها جلبت الوصف بالفساد .. فهم يأتون الرجال – ويقطعون السبيل – ويأتون في ناديهم المنكر ، وهذا كله إذا اجتمع كان فسادا وإفسادا .. وقد جاء في موضعين آخرين من القرآن الكريم ذم هؤلاء القوم دون وصفهم بالفساد ، كما في قوله تعالى :

((وَلَوْ طَآئِفًا لِّأَقْوَامٍ أَتَوْا لَقَوْمَهُمْ فَفَاحِشَةً مَّا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)) الأعراف (٨٠-٨١)

فلم يقل (قوم مفسدون) ، ولعل السبب في ذلك أن الذم والتحقير كان بسبب فعل واحد في هذا الموقف وإتيان الرجال ، دون أن يذكر معه فعلا آخر .. ونال تعالى :

((أَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)) النمل (٥٥)

فالوصف بالإسراف في آية (الأعراف) ، والوصف بالجهل في آية (النمل) كلاهما يبرز جانباً من حال هؤلاء ، فقد أسرفوا أي أفرطوا إفرطاً في اتباع نبي الله لوط ، وهم في الوقت ذاته قد جهلوا تحريم هذه الجريمة وعقوبتها عند الله .

فجاء بالاسم : (مسرفون) في آية الأعراف ، وجاء بالفعل : (تجهلون) آية النمل ، لأن كل إسراف جهل ، وكل جهل إسراف ، ثم ختم الآية بلفظ الاسم

موافقة لرؤوس الآيات التي تقدمت ، وكلها أسماء : (مفسدين ٧٤) - مؤمنون (٧٥) - كافرون (٧٦) - المرسلين (٧٧) - جاثمين (٧٨) - الناصحين (٧٩) - العالمين (٨٠) .. وفي سورة النمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : (لقوم يعلمون ٥٢) وكتوا يتقون (٥٣) ولأنتم تبصرون (٥٤)<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : (ولوطا إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة) (الأعراف ٨٠) وهو استفهام غرضه البلاغى التبكيت والتعجب الإنكارى وقد جاء بعده قوله تعالى : (إنكم لتأتون الرجال) (الأعراف ٨١) فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التقرير والتوبيخ والإنكار فى الثانى أكثر . ومثله فى سورة النمل : (أتأتون) (الآية ٥٤) ، وبعبده (أننكم لتأتون الرجال) فجمع بين : (إن - وأنن) وذلك لموافقة آخر القصة ، فإن فى الآخر : (إنا منجوك) (٣٣) (إنا منزلون) (٣٤) ، وجمع القصص المذكورة لم يأت الجزء فيها مؤكدا ، فقد جاء فى الأعراف (فأتجيناه) (الآية ٦٤) ، وفى النمل : (فأتجيناه وأهله إلا امرأته) (الآية ٥٧) ، أما فى العنكبوت فالجزء : (إنا منجوك وأهلك) (الآية ٣٣) و (إنا منزلون) . فاقترضى تكرار التأكيد لمعنى التقرير مرتين : بالاستفهام الإنكارى - وإن<sup>(٢)</sup> .

وقد يأتى وصف القوم بالظالمين ، والظلم - كما فى اللسان - وضع الشئ فى غير موضعه والجور ومجاوزة الحد ، وقد يأتى الوصف بالظلم فى القرآن لينصرف بالدرجة الأولى إلى الشرك والكفر بالله ، فهو ظلم له - سبحانه - وهو ظلم للنفس ، لأنه الظالم سقط فى مستنقع الهلاك ومن ذلك قوله تعالى :

((.. قَالَ إِبْرَاهِيمُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) (البقرة ٢٥٨)

<sup>(١)</sup> أسرار التكرار فى القرآن الكريم ص ٨٦

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ٨٥



فلم يقل (القوم الكافرين) حملا على ما تقدم من قوله : (الذى كفر) ، لأن التقرير هنا موجه لموقف بذاته وهو الشرود عن الحق ونسب هذا النمرود الموت والحياة لنفسه واستطاعته عليه ، وهذا من أبلغ الظلم .

وقوله تعالى : ((كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) آل عمران (٨٦)

وهنا - أيضا - لم يقل (القوم الكافرين) حملا على قوله (قوما كفروا) لأن التبكيت والتوبيخ على موقف محدد وهو ارتدادهم عن الإسلام بعد أن رأوا بيانه وعلموا أنه حق ، ففيه ظلم زائد على الكفر .  
وقوله تعالى :

((أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ)) التوبة (١٩)

وقوله سبحانه وتعالى في نفس السورة الكريمة في موضع آخر :

((أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرَ أَم مَّنْ أَسَّسَ  
بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَاٍ جَرَفٍ هَلْ يُفْتَنُونَ<sup>(١)</sup> فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ)) التوبة (١٠٩)

<sup>(١)</sup> هل يفتن : طرف حفرة في نار جهنم . فافتار : سقط بناهم .

جاء الوصف بالظلم هنا ، لأن الموقف في الآية محمول على ما سبق ، وهو ما أقاموا من مسجد ، سماه الله بمسجد الضرار وأرادوا به التفريق بين جماعة المسلمين ، وذلك في قوله تعالى :

((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ..)) التوبة (١٠٧)

ولا شك أن الاعتداء على المسلمين بالضرر والتفريق والإرصاد والحرب هو أبلغ الظلم ، ولذلك جاء وصفهم بالظالمين ، ومما زاد الوصف تهويلا وتفريعا أنه جاء في سياق استقهام الإنكارى والتعجب في المشاهد الثلاثة الأخيرة .

وقد يأتى الوصف بالظلم بالجملة الفعلية فيدل دلالة مغيرة لما سبق ، وذلك في قوله تعالى :

((مِثْلَ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ<sup>(١)</sup> أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ))  
في عمران (١١٧)

(قوم ظلموا) وصفهم بالجملة الفعلية ، وعلة ذلك - والله أعلم - أن الوصف بالظلم لم يكن عن موقف أو شئ فعلوه وانتهى ، ولكن الظلم هنا متجدد ، فهم يستمرون في حركتهم العدائية للإسلام ، ويستمرون في إتفاق أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، ولذلك تكرر ذكر الظلم في الآية ثلاث مرات ، لمزيد من لبيان والتأكيد ، ولكي يبين نفوسهم الظالمة ويثير الذهن إليها قدمها على الفعل في قوله : (أنفسهم يظلمون) .

<sup>(١)</sup> صيراً بره شديداً أو نار عرقاً .

أما إذا كان الموقف الوصفى حاملا لبيان الكفر الذى هو نقيض الإيمان ،  
فيتأتى الوصف به ، وذلك كما فى قوله تعالى :

((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ  
رِسَالَاتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ))  
المائدة (٦٧)

فالموقف هنا يبين وصف هؤلاء تجاه الرسالة (القوم الكافرين) ،  
فالموقف هنا موقف تبليغ ، والناس بصدده مؤمن أو كافر .. ولأنه موقف رسالة  
وتبليغ ، جاء صدر الآية بقوله : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ) دون (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) مثلا ، وقال  
(بلغ) - (رسالته) ، وهو ما جاء - أيضا - فى قوله تعالى :

((الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانَ لَمْ يُغْنُوا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَبًا كَانُوا هُمْ  
الْخَاسِرِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُكُمْ ،  
فَكَيْفَ آمَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)) الأعراف (٩٢-٩٣)

فالمشهد يبين موقف التكذيب للرسالة ، والكفر بالبلاغ الحق ، فوصفهم بـ  
(قوم كافرين) ، فلا يصلح هنا وصفهم مثلا : بالمفسدين أو الظالمين أو  
المسرفين أو نحو ذلك ، وإن كانت هذه الصفات متحققة فيهم ، إلا أننا هنا بحكم  
الموقف المحدد الذى برزت فيه الصفة الغالبة والتصرف المضاد لنهى الله  
شعيب وهو التكذيب والكفر ، والرغبة عن التصديق والإيمان بالرسالة  
المسموعة .

وجاء - أيضا - وصف القوم بالكافرين فى قوله تعالى :

((إِنَّمَا النَّسِيءُ<sup>(١)</sup> زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّتُونَ عَامًا وَيَحَرِّمُونَ عَامًا لِّيُؤْاطِنُوا إِعْدَةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَكَيِّنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)) التوبة (٢٧)

فالوصف بـ (الكافرين) هنا محمول على ما تقدم من أسبابه ومظاهره ، وليس أدل على الكفر - تقيض الإيمان - ممن أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله ..

وقد جاء ختام الآية هنا بقوله : (والله لا يهدي القوم الكافرين) لأن الجملة خبرية ، وجاءت الواو على الاستئناف ، أما في آية المائدة (٦٧) ، فجاء ختام الآية بقوله : (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) بالتوكيد بـ (إن) لأن الكلام محمول على ما سبق من إنكار المنكرين وتكذيبهم . والله تعالى أعلم .

وربما جاءت كلمة الكفر موصوفة بصفة أخرى . وذلك حسب ما يقتضيه الموقف ، كما في قوله تعالى :

((يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)) البقرة (٢٧٦)

جاء التعبير بـ (كفار) على مبالغة الكفر من هؤلاء ، ثم الوصف بالبليغ بـ (أثيم) لأنهم أحلوا ما حرم الله ، بأن جعلوا الربا الحرام حلالا كالبيع ، فالكلام محمول على ما سبق في قوله :

((.. قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)) البقرة (٢٧٥)

<sup>(١)</sup> النسئ : تأخير العرب لأشهر الحرم ، فيحاربون فيها إذا احتاجوا لذلك بأن يبدلوا شهرا من الأشهر .

وقوله تعالى

((وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ)) الزخرف (١٥)

فوصف (كفور) بالمبين مع تأكيد باللام وإن لأن السياق مبنى على الحديث عن هؤلاء الكافرين الذين جعلوا لله تعالى ولدا والولد جزء من الوالد ، فكيف والكل عباده ، فوحدانية الله ظاهرة لكل ذى بصر .  
وقوله تعالى :

((وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي . أَلَقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّهِرٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)) ق (٢٣-٢٧)

فوصف الكفار هنا بأوصاف كثيرة : عنيد ، مناع للخير ، معتد ، مهريب .. وهذا التعدد في تلك الصفات ونوعيتها ، وما بنيت عليه من صيغ للمبالغة يدل على سوء عاقبة هذا الإنسان وشدة عذابه الناتج عن قبح فعله وقوله في الحياة الدنيا .. ووصف الضلال هنا بالبعيد ، فيه دلالة على شدة الغواية وبعد الضلال وقداحته ..

ولفظ (الضلال) في القرآن الكريم يأتي أحيانا مطلقا دون وصف كتقوله تعالى ((وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)) (الرعد ١٤) ، وقوله : ((وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)) (غافر ٢٥) فأطلقه دون قيد أو وصف ليكون عاما شاملا ويأتي موصوفا بالبعيد أو بالمبين أو بالكبير ، أو موصوفا في سياق المفعول المطلق ، ومن ذلك قوله تعالى :

((الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)) إبراهيم (٣)

وقوله تعالى :  
((يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ))  
الحج (١٢)

فالوصف بالبعيد دون المبين للدلالة على شدة بُعد الضلال ، ولبيان ما عليه هؤلاء من كفر وشطط هائل .. والوصف بالبعيد يأتي في الأمور المتعلقة بالعمق واليوم الآخر وما يكون عليه أهل الشرك والكفر من الصد عن سبيل الله ومحاربة منهج الله ودعاته .. فهم لا يكتفون بعدم استجابتهم ، ولكن يجتهدون في الحرب والاعتداء على من استجاب لله ورسوله ومن ذلك قوله ذلك قوله تعالى :

((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مُمْرَقٍ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)) سبا (٨-٧)

فتهكموا وسخروا (هل ندلكم ..) ، ثم اتهموه بالكذب والجنون ، فجاء الوصف بالبعيد .

بينما جاء وصف الضلال بالمبين في موضع آخر في قوله تعالى :

((وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) الأحقاف (٢٢)

فلم يذكر - سبحانه - ملوكا معاديا ولا اعتداء ، ولكن عدم استجابة فحسب ، فجاء الوصف بالمبين .

ومن ذلك الوصف ما جاء كثيرا في القرآن الكريم في مواقف ليست في شدة الوصف بالبعيد ، كما في قوله تعالى :

((إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) آل عمران (١٦٤)

وقوله تعالى : ((إِنَّ آبَاءَنَا لِفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) يوسف (٨)

ولننظر إلى الوصف الوارد في سياق المفعول المطلق بين قوله تعالى :

((وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)) النساء (١١٦)

وقوله تعالى : ((وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)) الأحزاب (٣٦)

فجاء الوصف بالبعيد وإطلاق المفعول ، لأن سياق الحديث عن الشرك وهو أفدح الذنوب وأعظمها .. بينما آية الأحزاب تتحدث عن العصيان ، وهو خطاب للمؤمنين ينهاهم عن مخالفة حكم الله ورسوله ، وصدر الآية هو :

((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ..))

وجاء الوصف للضلال بالكبير في موضع واحد في القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى :

((قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)) (الملك (٩))

فجاء وصف الضلال بـ (الكبير) هنا لينبئ عن حال هؤلاء الكافرين وقت استقبالهم الرسل في الدنيا ، فقد رأوا ما جاءوا به من منهج أمرا كبيرا واعتبروه جريمة وكبيرة من الكبائر .. وفي السياق ما يدل على ذلك ، إذ نفوا نفيا قاطعا نزول شيء من الوحي ، وهو في قوله : (من شيء) فـ (شيء) بلفظها وتكثيرها ودخول (من) التبعية عليها في سياق النفي قد دل على ذلك .. وكذلك سياق الحصر والتوكيد بـ (إن) الدالة على النفي مع الاستثناء ، وإيثار (إن) على (ما) مثلا لمزيد من التوكيد وبيان الإصرار على موقفهم .

أما وصف الشيطان فقد جاء بصفات عديدة في مواضع مختلفة ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحِفْظُنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ)) (الحجر (١٧))

فصفته أنه رجيم ، أي ملعون ، مطرود من رحمة الله ، وإيثار صيغة رجيم على مرجوم مثلا ، لبيان الكثرة والمبالغة في الرجم ، حتى صار رجمه صفة متألصلة فيه لمداومته على الشر .. وقوله سبحانه : (كل شيطان رجيم) أفاد العموم وقد أفاد العموم في موضع آخر عن طريق لام الجنس ، وذلك في قوله تعالى :

((فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)) (التحل (٩٨))



فقد جاء التعبير عن إدارة الفعل بلفظ الفعل ، لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل<sup>(١)</sup> . والفاء لترتيب الاستعانة على العمل الصالح ، والتقدير : فإذا أخذت في قراءته ، فاستعد ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعانة عند إرادتها ، للتبني على أنها لسان الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم<sup>(٢)</sup> .

بينما جاء وصف الشيطان بصفة المريد في موضع آخر ، وذلك في قوله تعالى :

((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ))  
الحج (٣)

فجاء الوصف باسم المفعول (مريد) لبيان أن بعض الناس يريدون اتباعه في الكبر والميل عن الحق ، وقد جاء نفس التعبير باسم بالمفعول - أيضا - في سياق الحديث عن سلوك بعض الناس مع أفعال الشيطان ، وذلك في قوله تعالى :

((إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا))  
النساء (١١٧)

وجاء التعبير بنفس الصفة ، ولكن باسم الفاعل في قوله تعالى :

((إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ))  
الصافات (٦-٧)

(١) الكشاف ٢/٦٣٣

(٢) فتح القدير ٣/٢٦٧ - ٢٦٨

فالمريد والمارد ، كلاهما لوصف الشيطان وما انطوت عليه طبيعته من الخبيث والشر والتمرد ، والمارد : الذى يجئ ويذهب نشاطاً<sup>(١)</sup> .. فالتعبير بالمريد بين قصد القاصدين له واتباعهم إياه .. ومارد بين فعل الشيطان وكيفية تحركه فى عتو وشدة ، ولذلك جاءت صيغة (مارد) فى سياق الحديث عن السماء وزينتها وحفظ الله لها من تمرد الشيطان وعتوه .

#### \* الوعيد والتهويل

تأتى كلمة العذاب فى القرآن الكريم لتبين شدة عقاب أهل النار وتهويله ، وهذه الكلمة قد تأتى مضافة مثل : (عذاب الخلد) (يونس ٥٢) ، ومثل (عذاب ربك) (الإسراء ٥٧) ومثل : (عذاب الله) (إبراهيم ٢١) .. وقد تأتى كلمة العذاب مطلقة من كل قيد ، ولكنها تجمع الوعيد والتهويل عن طريق تعريفها بأل ، مثل : (وانذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا) (إبراهيم ٤٤) .. وقد أتت كلمة العذاب موصوفة بصفات مختلفة ، كقوله تعالى فى وصف العذاب بالعقيم ، وهو الوصف الوحيد فى القرآن الكريم كله :

((وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ)) الحج (٥٥)

فالوصف جاء لليوم (يوم عقيم) وأضيف العذاب إلى اليوم ، وهذا تركيب يفيد مزيداً من التهويل يبرز هول الساعة وإتباتها فجأة (تأتيهم الساعة بغتة) ، فالجمع بين الساعة والعذاب فى اليوم<sup>(٢)</sup> يبرز المشهد فى صورة عقيمة ، لا تنتج أى خير لأهل العذاب ، و (عقيم) على الاستعارة "والاستعارة

(١) اللسان مادة (مرد)

(٢) هو يوم القيامة وقد يشمل يوم بدر - أيضاً - على اختلاف المفسرين .

أبلغ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لا خير بعده للمعذبين . فقيل : يوم عقيم . أى لا ينتج خيرا ، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهالكين أعظم <sup>(١)</sup> .  
وقد ورد الوصف بكلمة (العقيم) ثلاث مرات فى القرآن ، الأولى فى سورة الحج (الموضع السابق) ، والثانية فى سورة الذاريات فى قوله تعالى :  
(.. وقالت عجوز عقيم) (الآية ٢٩) ويجوز أن تكون (عقيم) خيرا ثانيا ،  
والموضع الثالث فى قوله تعالى :

(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) (الذاريات ٤١)

(العقيم) "مستعار للريح ، وحقيقته ريح لا يأتى بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تلتى بمطر ، لأن ما لا يقع من أجل حال منا فيه أكد مما يقع من غير منافية وأظهر" <sup>(٢)</sup> .  
ويقول تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (البقرة ٦-١٠)

<sup>(١)</sup> الرمان - النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الرمان والخمائل وعبد القاهر الجرحاني - تحقيق

محمد - ط ٤ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩١ - ص ٨٩

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ٩٣ (وقد جاءت كلمة العقيم فى موضع رابع وأخير منصوبة على المفعولية ، وذلك فى سورة الشورى الآية ٥٠)

فقد استخدم السياق صفة العظيمة للعذاب مع الكافرين<sup>(١)</sup> ، فيقول تعالى :  
(ولهم عذاب عظيم) ، واستخدم صفة الألم للعذاب مع المنافقين ، فيقول جل  
شأنه : (ولهم عذاب أليم) .. وقد تفننت الآيات الكريمة في ذلك في غير موضع

فأحياناً يقول تعالى : ((وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) البقرة (٧)

وأخرى يقول تعالى : ((وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) البقرة (١٠)

وثالثة يقول تعالى : ((لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)) آل عمران (٤)

ورابعة يقول تعالى : ((وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)) آل عمران (١٧٨)

وهي "مراتب وأحوال لأهل النار - عافانا الله تعالى - فلأنهم سار عوا  
إلى المعاصي والجحود ، فلهم عذاب عظيم ، فالمسارعة تكون لأمر هائل ..  
وهذا العذاب هائل شديد ، يأتي عليهم كما تأتي النار على الحطب ، وهو  
يصيبهم بالألم الموجه لأنهم خدعوا أنفسهم واشتروا الكفر بالإيمان ، والمخدوع  
أو المشتري المغبون يتألم .. ثم هم مع ذلك في عذاب يهينهم ويذلهم ، وهم الذين  
طلبوا العزة والكرامة"<sup>(٢)</sup>

وجاء وصف العذاب بـ (مقيم) في قوله تعالى :

((يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ  
مُّقِيمٌ)) المائدة (٣٧)

<sup>(١)</sup> د. محمد موسى - التنكير وأثره البلاغي في القرآن الكريم - ط١ - مطبعة الأمل - المنصورة - ٢٠٠٠ - ص ٨٢  
<sup>(٢)</sup> محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ط٤ - دار المنار - القاهرة - ١٩٥٤ - ٤ / ٢٥٣

فنفي الخروج المؤكد بالباء في قوله (وما هم بخارجين منها) استجلب الوصف بالإقامة لأن نفي الخروج يعنى الإقامة ، فالوصف محمول على ما سبق مؤكد له .

وجاء وصف العذاب بـ (كبير) في قوله تعالى :

((..وإن تولَّوْا فإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)) مود (٣)

قوله تعالى : (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة ، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والتَّعَلُّ . وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء ، فكان قادرا على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه<sup>(١)</sup> .

\* وجاء وصفه بـ (قريب) في نفس السورة ، في قوله تعالى :

((وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَارُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِيهِ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَءَ مَا تَأْكُلُ مِنْ عَذَابٍ قَرِيبٍ)) مود (٦٤)

فجاء وصف (عذاب قريب) هنا حملا على ما سبق وعلى ما لحق - والله تعالى أعلم - مما سبق كان في قوله تعالى : (فاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (هود ٦١) فأخبر أنه - سبحانه - قريب الرحمة ، مجيب الدعاء ، فكان في مقابلة ذلك أنه قريب العذاب ، وهذا يرد كثيرا في سياق القرآن الكريم ، فيأتى الترغيب والترهيب معا ، ويُذكر نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وكان اللاحق لقوله : (عذاب قريب) قوله :

(١) الكشف ٢ / ٣٧٨

((فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ))

فوصف العذاب بالقرب ، لشدة قرب وقوعه ، فقد وقع عليهم بعد ثلاثة أيام ، وقيل : عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت .

\* وجاء الوصف بـ (محيط) في قوله تعالى :

((...وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)) مود (٨٤)

فهذه الأوصاف السابقة جميعا إذا ضمت إلى بعضها ألفت مشهدا موحدا يضم أجزاء مختلفة وجوانب عديدة ، فالعذاب - عياذا بالله - عظيم وشديد واليم ومهين ومحيط .. فهو مراتب وأحوال ..

وقال الزمخشري : (يوم محيط) مهلك من قوله تعالى : (وأحيط بثمره)<sup>(١)</sup> وأصله من إحاطة العدو فإن قلت : وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها ؟ قلت : بل وصف اليوم بها لأن اليوم مازال يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه<sup>(٢)</sup> .

\* وجاء وصف العذاب بـ (واصب) في قوله تعالى :

((وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَكُورًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)) المسافات (١٠٠-٧)

<sup>(١)</sup> كهف (٤٢)

<sup>(٢)</sup> الكشاف ٢ / ٤١٧

ووصف العذاب بالواصب هنا هو الوصف الوحيد في القرآن كله ، وهو عذاب الآخرة خاص بالشياطين ، ويؤكد ذلك تقديم شبه الجملة (لهم) أى لهم خصوصاً .. وهو "عذاب دائم لا ينقطع ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب : الدائم ، وقال السدى وأبو صالح والكلبي : هو الموجع الذى يصل إلى القلب ، مأخوذ من الوصب وهو المرض . (شهاب ثاقب) : نجم مضئ فيحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه ، وأصل التقرب : الإضاءة"<sup>(١)</sup>.

\* وجاء وصف العذاب بـ (غليظ) فى قوله تعالى :

((قُلْنَا لِلَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ))  
فصلت (٥١-٥٠)

جاء وصف العذاب بالغليظ هنا لمناسبة قوله (ولنذيقنهم) ، وقد ورد فى القرآن الكريم أن الكافر يذوق العذاب بجلده ، يقول تعالى :

((كَلِمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ))  
النساء (٥٦)

وفى الحديث الشريف بين النبى ﷺ أن جلد الكافر غليظ يقول : (إن غلظ جلد الكافر اثنتان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة"<sup>(٢)</sup>) ، فجاء وصف (غليظ) للعذاب ليناسب غلظ هذه الجلود ، وهذا من إعجاز الوصف القرآنى فى توافق الآيات مع بعضها ، ومع كلام النبى ﷺ .

<sup>(١)</sup> فتح القدير ٤ / ٥١١

<sup>(٢)</sup> أخرجه الترمذى عن أنس بن مالك ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح غريب ، وقال الألبان : إسناده صحيح .

وجاء وصف النار بـ (الموقدة) في قوله تعالى :

((نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ))<sup>(١٦)</sup> الهزء (٦-٩)

فجاء وصف النار بالموقدة مع إضافتها إلى لفظ الجلالة (الله) فتزداد تهويلًا على تهويل ، وربما يكون الوصف بالاشتعال هنا (الموقدة) ليبرز حقيقة أمر ذلك الذي منع ماله عن الصدقة ، فهو لا ينخر لنفسه مالا - كما يعتقد - وإنما يتحول المال إلى حطب اشتعال في نار الله الموقدة ، ثم وصف أعمدتها بالممددة لمزيد من التهويل والوعيد .

\* ومن وصف الوعيد والتهويل ، قوله تعالى :

((قَلَمًا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ))<sup>(٨٢)</sup> مود

فوصف الحجارة بأنها من سجيل وأن السجيل منضود .. والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره ، وقيل : هو شديد الصلب من الحجارة ، و (منضود) أى : تضد بعضه فوق بعض<sup>(١٧)</sup> . وهذا الوصف يخرج الحجارة عن نوعيتها المعتادة للقوم .

\* ومن وصف الوعيد والتهويل ، قوله تعالى :

<sup>(١٦)</sup> فتح القدير ٢ / ٧١٧



((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)) طه (١٢٤)

فوصف المعيشة بالضنكى .. والمرجح أن يفسر بعذاب القبر ، وفيه الضيق والشقاء لهذا المعرض ، وهو الذى طلب بإعراضه عن ذكر الله السعادة والسعة ، فكان الجزاء من جنس العمل .

#### \* البيان والتوكيد

قد تأتى الصفة لتؤكد حقيقة من الحقائق ، أو لتبين أمرا عرض فى سياق القرآن فيتحدد بعينه فى الذهن فلا ينصرف إلى غيره ، فيعيش القارئ طبيعة المشهد فى حضور وحيوية ، ومن ذلك قوله تعالى :

((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) التوبة (٣١)

فوصف (إلها) بـ (واحد) ليثبت الألوهية ويثبت الوجدانية ، وهو فى مقام تأكيد التوحيد وبيان العقيدة الصحيحة ، وقد جاء الوصف فى سياق أسلوب القصر المقيد للحصر والتوكيد - أيضا - (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) ، ووصف المسيح بـ (ابن مريم) للتأكيد على عبوديته ، وهو يذكر كثيرا فى القرآن بذلك الوصف<sup>(١)</sup> ..

<sup>(١)</sup> قد باتى فى بعض النواضع غير موصوف ، لاستغناء السياق عن ذلك الوصف بدلالته على عبودية عيسى (عليه السلام) كقوله تعالى (وما جاء عيسى بالبينات ...) ولم يقل (ابن مريم) لأنه قال بعدها (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) (وعسرف ١٢-١٣) ، وكقوله تعالى : (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ...) (آل عمران ٥٥) ولم يقل (ابن مريم) لدلالة السياق على عبوديته فى قوله تعالى (متوفيك) فكيف يكون إذا وقد توفى ٢٢ .. وكقوله تعالى (وما أوتى موسى وعيسى والنبىون من ربهم) (آل عمران ٨٤) فذكر عيسى معلودا ضمن الأنبياء والمرسلين فأخذ حكمهم وصفهم .

وكثيراً ما يأتي هذا الوصف التأكيدى فى مقام الحديث عن الشرك والمشركين والكافرين ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَابْتِئِزَّ قَارِهُبُونَ)) النحل (٥١)

فالمفرد والمنتى معدودان ، لا يحتاجان إلى دلالة على عددهما ، وإنما مازاد عن الاثنين فهو يحتاج إلى بيان فى العدد ، فأقول : عندي كتب سبعة ، فتحدد بذلك عدد الكتب . قال الزمخشري : إن قلت ما فائدة قوله (اثنين) مع إغناء التثنية عن ذلك ؟ قلت : الاسم الحامل لمعنى الأفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما ، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكدده ، فدل به على القصد إليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكدده بواحد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك - أيضا - ما ذكر فى مقام الوحي والتبليغ فى قوله تعالى :

((قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ))  
الأنبياء (١٠٨)

وقد يأتى الوصف بالعدد واحد لبيان التعجب والمخزية ، كما فى قوله تعالى :

((أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)) ص (٥)

فقالوها على سبيل النفي والإنكار والتعجب ، وقد زاد من بيان ذلك تصدير الآية بالاستفهام الدال على التعجب والإنكار أيضا .

وقد جاء العدد (واحد) مبيناً ومؤكداً لحقيقة معينة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، منها : قوله تعالى :

((وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) (الرعد ٤)

فوصف القطع بأنها (متجاورات) يجاور بعضها بعضاً في تلاصق وتلاحم ، ثم تنتج ثمراً مختلفاً على الرغم من التجاور وعلى الرغم من شربها ماء (واحد) ، فوصف الماء هنا بأنه واحد لبيان قدرة الله والدلالة عليها . وفي ختام الآية الكريمة بالوصف (يعقلون) ليتناسب بلاغياً مع موضوع الآية التي تدعوا إلى التفكير والتدبير في مظاهر قدرة الله ، فيكون ذلك سبيلاً للإيمان .

#### \* أمة واحدة

الأمة : الدين كما قال<sup>(١)</sup> ابن قتيبة ، ومنه : (إنا وجدنا آباءنا على أمة) (الزخرف ٢٢) أى على دين كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله . وقيل : إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة . وقيل : المعنى : إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهي ملة الإسلام<sup>(٢)</sup> .

(١) قد تأتي (أمة) في بعض المواضع بمعنى (جماعة) كقوله تعالى : (من أجل الكتاب أمة قائمة يطولون آيات الله) (آل عمران ١١٣) ، وكقوله تعالى : (وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم) (الزخرف ١٦٤) وقد تأتي (أمة) بمعنى وقت أو أجل كقوله تعالى : (وكن آخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحسنه) (مريم ٨) .  
(٢) فتح القدير ٥٨١/٣

.. وبناء على ما تقدم ، فإن وصف (أمة) بـ (واحدة) يأتي للتأكيد على أن الدين واحد ، ولهذا فإن هذا الوصف (واحدة) لكلمة (أمة) يأتي في سياق الحديث عن الفرقة في الدين واختلاف الكافرين على دين الله ، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى :

((وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)) يونس (١٩)

أى كانوا على دين واحد ، ففرقوا إلى فرق وأحزاب وقوله تعالى :

((إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)) الأنبياء (٩٢-٩٣)

فذكر وحدة الدين (أمة واحدة) في معرض الكلام عن القطع المتفرقة في الدين : (وتقطعوا أمرهم بينهم) . ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى :

((إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)) المؤمنون (٥٢-٥٣)

فقال في آية (الأنبياء) (فاعبدون) لأنه خطاب لملائكة الخلق ، أو للكفار ، فناسب أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق . وقال في (المؤمنون) (فاتقون) لأنه خطاب للرسل ، أو للنبي ﷺ والمؤمنون فناسب الأمر بالتقوى .. ، وأما قوله : (وتقطعوا) بالواو (في الأنبياء) لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، وقوله : (فتقطعوا) بالقاء في (المؤمنون) ، أى ظهر منهم التقطع بعد هذا القول ، والمراد أممهم<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> - إعراب التكرار في القرآن ص ١٤٣ ، وانظر - أيضا - كشف الممان ص ٢٥٨

ومن المواضع التي ذكرت الأمة فيها موصوفة بـ (واحدة) للتأكد على وحدة الدين وتوحيد العقيدة في سياق الحديث عن الكافرين ما جاء في قوله تعالى :

((وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)) الزخرف (٣٣)

ومما جاء موصوفاً بالعدد واحد ، قوله تعالى :

((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)) الفرقان (٣٢)

فكلمة : (جملة) ووصفها بالتضاد (واحدة) دل على تناقضهم مع الحق وتعنتهم فيما لا طائل من ورائه ، لأن ما طلبوه لا يخرج القرآن عن كونه معجزاً ، وهم قد طلبوا نزول القرآن دفعة واحدة لزعيمهم أن الكتب السابقة نزلت هكذا ، وقد كذبوا في ذلك وجعلوا حقيقة نزول الكتب .

وقوله تعالى : ((إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أُكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)) ص (٢٣)

فوصف النعجة بواحدة في سياق (تسع وتسعون نعجة) لإرادة بيان حالة الضعف والتأكيد على الظلم الواقع من جانب القاتل .

\* وقد يأتي الوصف بالعدد واحد لبيان شدة الموقف وهوله ، والتأكيد على عظمه ، وذلك كما جاء في قوله تعالى :

((وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً)) النساء (١٠٢)

فالتعبير بالمفعول المطلق (ميلة) وبيانه بالوصف (واحدة) أبرز حقد الكافرين الدفين في نفوسهم ورغبتهم في شدة الانتقام ، حتى تكون ميلة واحدة قاصمة .  
ومن هذا النوع - أيضا - ما جاء في قوله تعالى :

((إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)) يس (٢٩)

((مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)) يس (٤٩)

((إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)) يس (٥٢)

فوصف الصيحة بأنها واحدة تدل على شدتها فلا يحتاج إلى ثانية لكفاية الصيحة الواحدة في القضاء على الخلق (آية ٢٩) أو في بعثهم (آية ٥٢) . وقد أتت كلها في سياق أسلوب التوكيد عن طريق النفي والاستثناء لقطع الطريق على المنكرين والمكذابين .

وقد يأتي التعبير عن البعث بعد الموت بالزجرة الواحدة لبيان شدتها وقوتها ، كما في قوله تعالى :

((فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ)) الصافات (١٩)

وقوله تعالى :  
((فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)) النازعات (١٣)

وقد أجمع المفسرون على أنها النفخة الثانية ! وقد جاء التعبير عن النفخة الثانية بالصيحة كما في آية (٥٣) ، ولعل المراد بالزجرة الواحدة : أى الدفعة الواحدة للخلائق ليساقوا إلى أرض المحشر ، فتكون الصيحة شينا ، والزجرة شينا آخر . والله تعالى أعلم .

ومن هذا الوصف - أيضا - قوله تعالى :

((فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ..)) الحاقة (١٣)

((وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)) الحاقة (١٤)

فالوصف بـ (واحدة) فى النفخة والدكة يبين مدى شدتها وهولها .. وقد بنى الفعل للمجهول فى كلا المشهدين ، وكذا كل مشاهد القيامة .. "فما سر ظاهرة الاستغناء عن ذكر الفاعل فى أحداث يوم القيامة ؟ يهدين البيان القرآنى إلى أن أساليب البناء للمجهول ، والمطاوعة ، والإسناد المجازى ، تلتقى جميعا فى الاستغناء عن ذكر الفاعل ، وإن كان لكل أسلوب منها ملحظه البياني الخاص ، يجلوه استقراء مواضعه فى الكتاب المحكم ..

أطراد هذه الظاهرة فى موقف البعث والقيامة ، ينبه إلى أسرار بيانه وارء ضوابط الصنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشكلية .. فبناء الفاعل للمجهول ، فيه تركيز الاهتمام على الحدث ، بصرف النظر عن محدثه" (١).

وقد تأتى الصفة لبيان الشئ وتحديد بذاته ، فتتميز بصورة حاضرة فى الذهن ، فلا ينصرف إلى غيره ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى :

(١) الإعجاز البيان للقرآن ص ٢٤٢

((يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ..)) التوبة (٣)

فقد وصف الحج بالأكبر ، لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، وقد يراد به يوم عرفه ، لأنه إذا فات فات الحج ، وقد يراد به يوم النحر ، لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج ، فهو الحج الأكبر<sup>(١)</sup>. وقوله تعالى :

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً تَصَوحًا..)) التحريم (٨)

فالوصف (تصوحا) حدد شروط التوبة حتى تقبل أى صادقة . ووصف الفلك بالمشحون ليبين مدى ازدهاره ، فقال :

((إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)) الصافات (١٤٠)

وبين نوع الشجرة التى أنبتت على نبي الله يونس عن طريق الوصف فقال :

((وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ<sup>(٢)</sup>)) الصافات (١٤٦)

وقد يأتى الوصف ليبين الضعف وطلب الترحم والاستعطاف كما فى قوله تعالى :

<sup>(١)</sup>الكشاف ٢ / ٢٤٥

<sup>(٢)</sup> هى شجرة الفرع كما قال جمهور المفسرين وعصها بالذكر لأنها باردة الظل ولا يجتمع عندها الذباب ، كما تكون سريعة البت . انظر (تيسر الكريم الرحمن ص ٧٧٧)



((قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدُنَا مَكَانَهُ))

يوسف (٧٨)

وكقوله تعالى :

((قَالَتَا لَا تَسْقَى حَتَّى يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)) القصص (٢٣)

وأتى الوصف لبيان الكرم ، كما فى قوله تعالى :

((وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ . فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)) هود (٦٩)

وقوله تعالى :

((فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)) الذاريات (٢٦)

فقد يكون وصفه بحنيذ فى (هود) لبيان حالة إعداده وإنضاجه ، فكان يشوى على الحجارة المحمأة على النار .. ووصفه بـ (سمين) فى الذاريات لبيان حالته الصحية وبُعده عن الهزال وخلافه والله أعلم .  
وقوله تعالى فى وصف العجل بالجسد :

((وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ..)) الأعراف (١٤٨)

وكذا فى سورة طه :

((فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ..)) الآية (٨٨)

ويجوز أن ينتصب (جسدا) على البدلية وعلى الوصيفة ، فتكون صفة العجل جسد بمعنى الجثة فقط ، قال ابن الأنباري : "ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه ، وأن شخصه شخص مثال وصورة ، غير منضم إليها روح ولا نفس"<sup>(١)</sup>. وجملة (له خوار) وقعت صفة لتبين هيئة من هيئات هذا العجل ، وهي هنا هيئة صوتية إذ له صياح من أثر دخول الريح فيه .

وقد قامت الصفة أيضا ببيان حالة القوم في قوله تعالى :

((حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)) الكهف (١٣)

(قوما لا يكادون يفقهون قولا) فظهرت صفتهم في عدم فهمهم لغة غيرهم ، فهم لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم<sup>(٢)</sup>

وكثيرا ما يأتي وصف السماء بالدنيا لتحديدتها عن باقي السموات ، كما في قوله تعالى :

((وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ..)) الملك (٥)

وتأتى الصفة - أيضا - لتبين منافع الشيء ومزيته ، كما في قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ..)) النحل (١٤)

<sup>(١)</sup> فتح القدير ٢ / ٣٥٢

<sup>(٢)</sup> نعمة ٣ / ٤٢٩

ففى وصف اللحم بأنه (طريا) بيان لمزيته الصحية وهضمه .. ثم بين  
صفة الحلية المستخرجة به (تلبسونها) ، وقد وصف اللباس فى مواضع أخرى  
بقوله :

((يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَاتِكُمْ وَرِيشًا))  
الأعراف (٢٦)

فوصف خاصية اللباس بأنه (يوارى) الموات ويستتر العورات .

\* \* \*

---

## الفصل الثالث

### التخلص

## التخلص

عرف العرب في جاهليتهم التخلص من معنى إلى معنى ، وإن كانوا في ذلك يذكرون : دع عنك ، أو سل عنك الهم بكذا ، وهو ما أجاد فيه الشعراء بعد ذلك ، فلا يكاد يشعر به السامع حتى يجد نفسه في معنى آخر .. وهو فن رقيق يدل على مهارة المبدعين ، وقد عرفه ابن الأثير بقوله : هو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فيبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وحمل الأول سببا إليه ، فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض ، من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً<sup>(١)</sup> .

والتخلص معروف في النثر ، يلجأ إليه الكاتب ليخرج مقدمته إلى غرضه ومعانيه المتعددة فيجعل من أسلوبه سلاسة وانسياباً تأخذ برقاب الكلام ، فيكون سبيلاً لإثارة الانتباه وهو في ذلك أيسر سبيلاً من الشاعري الذي تحكمه القافية ويقيده الوزن ..

والقرآن الكريم نموذج فريد ، اشتمل على المعاني الجليلة المتعددة في التخلص عجيب معجز لا يعرف التقليد ، على الرغم من معرفة العرب بهذا الفن وممارستهم له ..

### \* التخلص من الوعد إلى الوعيد

وهو مجال عظيم واسع في القرآن الكريم لاشتماله على وعد الله للمؤمنين بالجنة والجزاء الحسن والتذكير بالآخرة والترغيب في رضوان الله ، ثم ينتبع ذلك بالوعيد بالنار للكافرين والجاحدين والترهيب من عذاب الله ، وقد جاء ذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى :

<sup>(١)</sup> ابن الأثير - المثل السائر - تحقيق - محمد عبيد الدين عبد الحميد - المكتبة المصرية - بيروت - ١٩٩٥ - ٢/٢٤٤

((مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثلته كمثال صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدر على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة بريرة ..)) (بقرة: ٢٦١-٢٦٥)

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على موقفين للمنفقين ، وقد بدأت الآيات بتمثيل ما ينفقه المؤمنون بالجنة التي تضاعفت ثمارها بسبعمئة ضعف ، ثم يضاعف لمن يشاء ، ثم كان التخلص الرائق إلى الحديث عن المنفقين الذين يؤذون الفقراء :

((الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى))

فتخلص من الحديث عن المؤمنين المنفقين إلى الحديث عن المنفقين الذين يؤذون الفقراء وذلك في لحن لطيف (ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى) ، ثم شرع في التفصيل وبيان الوعيد : (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ...)

ومن البلاغة الرائقة في الآيات ، أن يقع التخلص مرة ثانية فيأتي الحديث عن المنفقين المخلصين في تمثيل صدقاتهم بجنة بريرة ، بعد أن مثل إنفاق الآخرين بصفوان عليه تراب ، فكان كالنسيج المتماوج يأتي في صورة

## التخلص

تقابلية يبرز المعنى في مشهد حى ينبض بالحركة والحياة ، فنرى الوايل ونسمعه وهو يضرب الصفوان - الحجر الأملس - بمائه فينزل ما علق به من تراب فيتركه خاويًا ، كمثل المنفق رثاء الناس لا يبقى له شئ عند الله ، ثم بعد الجذب والصخر إلى الجنة الوارفة التى تضاعف ثمرها ، كتضاعف أجر إنفاق المخلصين .

ومن موضوع الإنفاق وما فيه من التخلص من الإخلاص إلى الرياء كان التخلص إلى موضوع آخر يتعلق بالمال ، وهو (الربا) وذلك فى قوله تعالى :

((الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...))  
البقرة (٢٧٤-٢٧٥)

وقوله تعالى :

((وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُبْيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))  
آل عمران (١٠٤-١٠٨)

فيعد أن ذكر المولى عز وجل - جماعة المؤمنين الدعاة ، جاء التخلص إلى ذكر نقيضهم بنفس النسيج اللغوى فى قوله : (ولتكن) فقال : (ولا تكونوا) ، ثم التخلص إلى ذكر مشاهد القيامة (يوم تبيض وجوه ...)

ومن لطيف التخلص إلى مشاهد القيامة أن جاء قوله تعالى قبل ذلك :  
(وأولئك لهم عذاب عظيم) فكان بمثابة التوطئة والتهينة لاستقبال المشهد .

ومن ذلك التخلص ما جاء في قوله تعالى :

((يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))  
الأعراف (٣٥-٣٦)

فجاء ذكر الرسل أولاً بخطاب العموم المناسب للرسالات : (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم) ثم التخلص إلى مهمة الرسل (يقصون عليكم آياتي) ثم التخلص بتقسيم الناس إزاء الرسالات إلى فريقين وبيان جزائهما (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) - (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ثم بعد ذلك جاء التخلص إلى ذكر أهل النار ساعة وفاتهم ، وساعة دخولهم النار ، وتفصيل مشهد الملاعة فيما بينهم .. ثم مقابلة ذلك بمشهد أهل الجنة ، ومشهد آخر في حوار بين أهل النار وأهل الجنة .. يقول تعالى :

((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَئِكَ يَنْزِلُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..))  
الأعراف (٣٧)

((قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا نَخَلَّتْ أُمَّةٌ مُعِنْتَ أَخْلَاهَا ...))  
الأعراف (٣٨)



((لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ .  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ  
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ...)) الأعراف (٤٥-٤٦)

((وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا ..)) الأعراف (٤٤)

((وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ  
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ)) الأعراف (٥٠)

وفى مشهد المقابلة بين أهل الجنة بوجوههم المشرقة ، وأهل النار  
بوجوههم المظلمة ، جاء التخلص من ذكر أهل النار إلى عرض مشهدهم يوم  
الحشر ، يقول تعالى :

((الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ،  
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ  
مِثْلُهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مِّمَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ  
الْبَلِّ الْمَظْلَمِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ  
نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا  
كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاتُنَا عَبَدُون)) يونس (٢٦-٢٨)

ومن بديع التخلص فى هذه الآيات الكريمة ، أن جاء عرض نعم الله  
ومظاهر قدرته بعد الحديث عن أهل النار .. وعلاقتها بما سبق أنها تحمل  
الزجر لأهل النار والتبكي على كفرهم ، أى كيف يكفرون بالله وهذه دلائل  
قدرته ونعمه عليهم !؟ يقول تعالى :

((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...))  
يونس (٣١)

((قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ . هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ...))  
يونس (٣٥-٣٤)

.. فما زال عرض مشاهد التوبيخ والزجر لهم ، حتى انتهى المشهد إلى تصوير حسرة هؤلاء وندمهم :

((وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ إِلَيْهِمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ))  
يونس (٥٤)

ومن بديع التخلص ما جاء في ذكر موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون ، ثم ذم فرعون وذكر ما ينتظره من وعيد ، يقول تعالى :

((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقَدَّمَ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَيَلْعَنُ الْوَرْدُ الْمُورِدُ ..))  
هود (٩٦-٩٨)

وقوله تعالى بعد هذا العرض : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ..) فقد جاء ذكر العديد من هلاك القرى التي ورد ذكرها من أول هذه السورة ، كقوم نوح وهود وثمود ولوط ومدين وفرعون ، ولذلك جاء قوله تعالى :

((وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لِهَ النَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ . وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ  
شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ)) هود (١٠٢-١٠٣)

فالآيات تتقابل في تناسق بليغ ، تتصاب انسياب الماء ، فلا فصل بينها ..  
فهذا هو أخذ الله للقرى الظالمة ، وهذا الأخذ آية من آيات الله تعالى ، وهذه الآية  
يفيد منها من يخشى الآخرة التي يجتمع لها الناس في يوم مشهود ، فيه الشقى  
والسعيد ..... فلا نشعر أننا انتقلنا من موضوع إلى موضوع ، وهذا من إعجاز  
القرآن الكريم .

وكثيرا ما يأتي التخلص من ذكر أهل الجنة والنار إلى عرض مشاهد  
القيامة ، كقوله تعالى :

((وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا  
كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... )) الشعراء (٩٠-٩٢)

فجاء ذكر الجنة والنار ببناء الفعل للمجهول لجمع شتات الذهن إلى  
أصل المشهد من جنة أو نار ، فلا يدخل فاصل من شأنه أن يصرف الذهن أو  
يقلل الانتباه ، ثم جاء عرض مشهد القيامة : (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من  
دون الله ..)

وربما جاءت التوطئة بذكر فضل الله ليكون التفصيل والحديث عن  
الجنة وأهلها ، كقوله تعالى :

((كَمْ أَوْفَتْنا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ  
وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ . ذَلِكَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنّاتُ

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ  
(... فاطر (٣٢-٣٣)

فقال : (الذين اصطفيوا) على سبيل الإجمال ولفت الانتباه ثم التفصيل بالظالم ، والمقتصد ، والسابق ثم مهد بالفضل الكبير ، ففسره بـ (جنات عدن) ، وانتقلت الآيات لتشرح نعيم أهل الجنة ثم التخلص بعد هذه الآيات إلى ذكر أهل النار وأحوالهم واصطرأخهم : (الذي أخلصنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها غوب، والذين كفروا لهم نار جهنم) ..

ومن لطيف التوطئة والتهيؤ للانتقال ، ذكر نفى النصب - العناء والتعب - واللغوب (الإعياء من التعب) لأهل الجنة ، فكان بمثابة إثباتها - ضمنا - لأهل النار ، فجاءت الآية بعدها : (والذين كفروا لهم نار جهنم ...).

وقوله تعالى :  
(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِمِثْلِ هَذَا قَلِيعَمَلِ الْعَامِلُونَ . أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)) الصافات (٦٠-٦٢)

قال الزركشي : وهذا من بديع التخلص ، فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم ، إلى وصف الظالمين وما أعد لهم <sup>(١)</sup> وقد جاء التخلص في آية : (أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم) فجمع بين طرفي الآية المتضادين : الخير وشجرة الزقوم برابط (أم) والاستفهام بالهمزة المفيدة لتقرير اختيار خير النزل ، فصار الكلام جاريا في انسياب .

(١) الم هان في علوم القرآن ٤٤/١

وتستهل سورة الواقعة آياتها بذكر مشاهد القيامة من خفض ورفع ورج للأرض وبس للجبال ، ثم يتخلص المشهد من ذكر هذه الأحداث إلى إجمال الخلائق في أصناف ثلاثة :

((وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالْمُسَاقِفُونَ الْمُتَسَقِفُونَ . وَالْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ...)) الواقعة (١٥-٧)

فجاء التفصيل بعد الإجمال : فأصحاب الميمنة ... ثم جاء التخلص للرائق في ذكر نعيم السابقين ثم بعده في ذكر نعيم أصحاب اليمين ، ثم أصحاب الشمال ، وجاء التخلص البديع من ذكر عذاب الكافرين إلى الحديث عن قدرة الله تعالى وما كان ينبغي من شكره لا كفره ، فيقول تعالى :

((هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ . نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ ...)) الواقعة (٥٨-٥٦)

فكان التذكير بقدرة الله على خلقهم فكيف لا يؤمنون ولا يصدقون ، وقد ناسب ذلك التخلص إلى الحديث عما يمنونه هل هم بذلك خالقون ؟!

وربما جاء التخلص من علامة من علامات الساعة إلى الحديث عن أهوالها ، كما في قوله تعالى :

((وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ . يَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَوْجًا مَّمَّنَ يُكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ

يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)) النحل (٨٢-٨٤)

دابة في الأرض تكلمهم ، وهذا في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق <sup>(١)</sup> فهذه العلامة من علامات الساعة الكبرى ، فناسب التخلص للحديث عن الساعة ذاتها بقوله (ويوم نحشر من كل أمة ...).

#### \* التخلص في آيات قدرة الله وصفاته

تأتي الآيات التي تتحدث عن قدرة الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وفي مقامات مختلفة ، قد تهيأت فيها النفس إلى استقبال هذا الحديث بصفة خاصة ، ومن ذلك قوله تعالى :

((كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَصْلَحْهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ يَبْعَثُ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَاطِفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَخْضَغَةٍ مُخْلَقَةً وَغَيْرَ مُخْلَقَةٍ لِكَيْتَبَ لَكُمْ ، وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَن يَتُوفَّى وَمِنْكُمْ مَن يَرْدُ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)) الحج (٧-٤)

فالشيطان يقوم بالغواية والتضليل ليقوع جنده وأتباعه في عذاب السعير . فناسب ذلك التخلص إلى الحديث عما يزيل هذا التضليل والتشكيك ، وهو الحديث عن كيفية خلق الإنسان ومراحل خلقه ، ثم التخلص للحديث من نفس

<sup>(١)</sup> ابن كثير ٦٨٢/٢

هذا النسيج عن إحياء الأرض الهامدة وهذا الحديث عن إحياء الموتى يناسبه الحديث عن البعث والنشور : (وأن الساعة آتية ..) .  
ومن أحسن أمثلته قوله تعالى :

(( اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيئُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ))  
النور (٣٥)

فقد اشتملت الآية على خمسة تخلصات ، وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجاة وصفاتها ، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه ، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء <sup>(١)</sup> .

ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى :

(( قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ... ))  
الشعراء (٧٥-٨١)

<sup>(١)</sup> المهان في علوم القرآن ٤٣/١

## التخلص

فجاء التخلص من ذكر إبراهيم عليه السلام لأحوال قومه من عبادتهم للأصنام إلى ذكر صفات الله ، وكان هذا الانتقال عن طريق قوله تعالى : (فأتاهم عدو لى إلا رب العالمين) ، وهو ما يعرف بالاستثناء المنقطع .  
ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى :

((وَجَدْتَهُمَا وَقَوْمَهُمَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)) النمل (٢٤-٢٦)

فجاء الانتقال من الكلام عن عبادة بلقيس وقومها للشمس إلى أحقية الله وحده في العبادة ، وذكر دلائل هذا الاستحقاق عن طريق ذكر صفات الله تعالى ، فهو الذى يخرج ما خفى فى السموات والأرض ، ويعلم السر وهو رب العرش العظيم .

وكان قوله : (فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) بمثابة التوطئة للانتقال ، وإعلان المسبيل الحق وطريق الهداية ، وكان من بديع أسلوب التخلص قوله (ألا) ففيها لفت للانتباه مع ما يحمله من توبيخ .

ومن ذلك قوله تعالى :

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْعَامٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ)) قلمر (٢٧-٢٨)



#### التخلص

فقد بدأ المشهد الحي المتحرك بمخاطبة حاسة البصر والبصيرة : (ألم تر) ليرى الإنسان القدرة الإلهية المتفردة والألوان المشتركة بين الكائنات والناس . فالمشهد زاهر بالعديد من الأجزاء المترابطة النسيج والغرض ، وإن كانت مختلفة الأجناس والأنواع "إنها لفئة كونية عجيبة من اللغات الدالة على مصدر هذا الكتاب . لفئة تطوف الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها . في الثمرات وفي الجبال وفي الناس وفي الدواب والأشجار . لفئة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعا .. وتبدأ بإزالة الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان .. وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ، ولكن في ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددتها ، واللفظة إلى ألوان الصخور وتعددتها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي"<sup>(١)</sup>.

وقد جاء التخلص من ذكر عذاب الكافرين إلى ذكر صفات الله تعالى في قوله :

((سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ))  
المعارج (٤-١)

أى هذا العذاب يقع بالكافرين ، لا يدفعه أحد لأنه من الله . (الله ذى المعارج) فهو تخلص لطيف يبرز صورة صدور العذاب من الله ، فيزيده تهويلا وتقزيعا .

(١) الظلال ٢٩٤٢/٥

وتتفق بداية هذه السورة الكريمة التي يذكر فيها العذاب مع خاتمة السورة قبلها ، وهي سورة الحاقة ، وما اشتملت عليه من ذكر للمكذابين والكافرين مع كونه الحق اليقين ، فيقول تعالى :

((وَأَنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)) الحاقة (٤٩-٥٢)

فهاهم أولاء المكذبون والكافرون في خاتمة سورة (الحاقة) ، وهذا هو وعيدهم بالعذاب الواقع في بداية سورة (المعارج) التي بدأت بـ (سأل) وتسمى - أيضا - سورة سأل . "وكان المسأل عن شيء يدل على أن المسأل ما فهمه حق فهمه ، ولا اتصف بحقيقة علمه ، وعجب في أول هذه السورة ممن سأل عنها فقال : (سأل) ودل على أنه لو لم يسأل عنها إلا واحد من العباد لكان جديرا بالتعجب منه والإنكار عليه بالإفراد في قوله : (سأل)"<sup>(١)</sup>.

وكثيرا ما يأتي الحديث عن قدرة الله تعالى بعد التخلص من الحديث عن المكذبين ، ليكون زجرا لهم وتقريرا ، ومن ذلك قوله تعالى :

((أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ . أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ . أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءَ وَامُوتًا . وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا))  
المرسلات (١٦-٢٧)

فذكر إهلاك المجرمين وإفناءهم ، ثم ذكر كيفية البدء والخلق ، ثم ذكر الأرض وما جعل فيها من مظاهر قدرته ، وفي كل مرحلة يتم الانتقال منها بواسطة : (ويل يومئذ للمكذبين) ، أى : كيف تكذبون وقد أهلكنا وخلقنا وجعلنا في الأرض كفايتكم والجيال الرواسي الشامخة والماء الفرات ، فصارت كلها نسيجا واحدا لا يفصل بينها فاصل ، بل تسير الموضوعات في تراكب شعورى رقيق .

ومن ذلك قوله تعالى :

((فَلَاخْذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى . أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ)) (النازعات ٢٥-٣٢)

فالأيات تتراص في تجاور بديع .. فقد أخذ الله فرصون بسبب استعلائه وكفره ، أى كان كفره سببا في أخذ الله له بالنكال في الدنيا والآخرة .. ولأن هذه القصة يجرى من ورائها غرض العظة والعبرة ، كان الانتقال والتخلص بقوله : (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) ، وهو "انتقال من الاعتبار بأمثالهم عن الأمم إلى إيصال شبيحتهم على نقي البعث ، وإذ قد فرضوا استحالة عود الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا : (أنا لمرودون في الحافرة) (النازعات ١٠) جاء إيصال شبيحتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض ف قيل لهم (أنتم أشد خلقا أم السماء) ، فذلك قيل لهم هنا أنتم بضميرهم ولم يقل : الإنسان أشد خلقا ، وما هم إلا من الإنسان وهو اللغات من الغيبة إلى الخطاب" (١)

(١) التحرير والتوير ٣٠ ، ٨٣

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

((قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرَهُ . كُلًّا لَمَّا يَبْقُضَ مَا أَمَرَهُ . فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبَا وَغَضَبًا . وَزَيَّنَّوْنَا وَنَخَلًا . وَحَدَائِقَ غُلَبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا كَمًّا وَلِئَعْلَايَكُمُ)) عيس (١٧-٢٢)

(ما أكفره) صيغة تعجبية فيها دلالة على شدة غضب الرحمن ، ما الذى جعله يكفر ، (من أى شئ خلقه) ، وهو استفهام للتقرير والتوبيخ ، فكان التخلص اللطيف ، فشرع فى إقامة الأدلة على خلق الإنسان ومراحل نموه من نطفة إلى إيجاده مقدرًا ، "ولما كانت مدة البرزخ طويلة ، وكان البعث أمرا محققا غير معلوم الوقت بالعين بغيره تعالى ، عبر عن المعلى الثلاثة بأداتى التراخي والتحقيق ، فقال : (ثم إذا شاء) أى إنشأه (أنشأه) أى بعثه من قبره" (١)

#### \* التخلص فى القصص القرآنى

اشتمل القرآن الكريم على الكثير من قصص الأمم السابقة وما وقع منهم وحدث لهم ، فهى تشتمل على الكثير من العظات والعبر التى يستقيها المسلم ويستلهم أحداثها فى حياته .. ومما جاء من تخلص فى قصص القرآن الكريم قول تعالى :

(١) نظم الدر ٣٢٩/٨

((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَأَنَا الْخَيُّ وَآمَيِّتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُخَيِّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ...)) البقرة (٢٥٨-٢٥٩)

عطف قصة على قصة ، مع أن شرط العطف المشاكلة ، فلا يحسن في نظير الآية (ألم تر إلى ربك) - (أو كالذي) .

ووجه ما بينهما من المشابهة أن (ألم تر) بمنزلة : هل رأيت كالذي حاج إبراهيم ؟ وإنما كانت بمنزلة لأن (ألم تر) مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ولذلك يجب ببلى ، والاستفهام يعطى النفي ، إذ حقيقة المستفهم عنه غير ثابتة عند المستفهم ، ومن ثم جاء حرف الاستفهام مكان حرف النفي ونفى النفي إيجاب ، فصار بمثابة "رأيت" غير أنه مقصود بالاستفهام ، ولم يمكن أن يؤتى بحرفه لوجوده في اللفظ ، فلذلك أعطى معنى : هل رأيت<sup>(١)</sup>

ومن ذلك قوله تعالى :

((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ..)) آل عمران (٣٣-٣٦)

(١) المهان في علوم القرآن ٤٦/١

## التخلص

فذكر الله تعالى اصطفاءه لآدم ونوح وآل عمران على العالمين بهذا الإجمال ليكون توطئة للانتقال إلى قصة مريم وعيسى - عليها السلام - ، وإذا كان ذكر الاصطفاء أولا تخلصا عاما ، تدرج إلى التخلص الخاص المباشر في قوله : (ثرية بعضها من بعض) ، إيذانا بذكر بعض من ذرية آل عمران ، فكانت مريم ..

وكان من بديع التخلص أن انتقل الحديث القصصى إلى ذكر نبي الله زكريا - ﷺ - انتقالا عجيبا ، وذلك في قوله :

((..كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ))  
آل عمران (٣٧-٣٨)

فوجود هذا الرزق في غير وقته عند مريم أمر عجيب في ذلك الوقت ، ولكنه وجد بفضل من الله مع استبعاد عقله ، فكان هذا باعثا لزكريا - ﷺ - أن يدعو بما هو مستعبد أو مستحيل عقلا بأن يرزقه الله ذرية طيبة (حيث بلغ من الكبر عتيا ، وكانت امرأته عاقرا) ، ولذلك جاء التعبير بقوله (هنالك) الدالة على البعد من لفظ (هنالك) ودخول اللام .

فكان التخلص من هذا الرزق العجيب ، إلى ذلك الدعاء العجيب والاستجابة لاثنتين بما يدل دلالة واحدة ، وهي قدرة الله تعالى .

.. والانتقال في هذا الموضع من السورة يسير في خط شعوري ومعنوي واحد ، فالآيات تتخلص من ذكر امرأة عمران وولادتها وما فيها من عجائب

## التخلص

قدرة الله ، إلى دعاء زكريا واستجابة الله له ، إلى مريم مرة أخرى وعجوبة العجائب وإعجاز الميلاد في عيسى - عليه السلام - ، فقال جل شأنه :

((يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَكَفَّلَهُ النَّاسُ فِي الْقَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ...)) لى عمران (٤٣-٤٦)

فجاء التخلص من الحديث عن مريم إلى بشارتها بالمولود عيسى - عليه السلام - ثم التخلص الرائق بذكر صفاته : وجيها في الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس .. ومن الصالحين ثم التخلص مرة أخرى إلى مريم ووقع الحدث عليها : (قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ..) .

.. ولا يكاد هذا المشهد الفريد أن ينتهى ، حتى نجد أنفسنا فى مشهد آخر فى التخلص لطيف رائق ، إذ ينتقل بنا المشهد فى ساحة دعوة عيسى عليه السلام لقومه :

((وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)) لى عمران (٤٩)

فجاء التخلص حاملا الالتفات من الغيبة إلى المتكلم ، فعمل ذلك على إيقاظ الذهن وحضور المشهد مجسدا حيا .

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

((وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ كَرِيمٌ الْغَافِرِينَ . وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ، إِنَّا كُنَّا إِلَيْكَ قَالٍ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهُمَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُكُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) (الأعراف ١٥٥-١٥٧)

فقد ذكر الله تعالى الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى عليه السلام ، فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ، ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام : ((وَكَتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ)) . فاجيب بقوله تعالى : ((قَالَ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهُمَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ..)) من حالهم كذا وكذا ، ومن صفاتهم كيت وكيت ، وهم الذين ((يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)) ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام <sup>(١)</sup>.



ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

((تَحَنَّنْ نَقْصَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ...)) يوسف (٤-٣)

فجاء التخلص من ذكر العموم فى (أحسن القصص) موطننا لعرض قصة يوسف، عليه السلام بقوله : (إذ قال يوسف لأبيه) ، وهو "بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الائتمثال ، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصود ، فإذا قص وقته فقد قص . أو بإضمام "الذكر" <sup>(١)</sup>

\_\_\_\_\_

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

---

## الفصل الرابع

### إعجاز الكلمة

#### \* التصوير الصوتي للكلمة

تحمل الكلمة في طياتها دلالات صوتية من شأنها أن تصور الحدث وملابساته تصويراً دقيقاً ، فيساعد ذلك على إبراز الموقف بجزئياته وظلاله ، فلو وقفنا مثلاً- عند كلمة (خَر) ، فنجد أنها قد وردت في آيات عديدة من القرآن الكريم ، ولها دلالات متباينة كلما تغير السياق .. يقول تعالى :

((فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)) الأعراف (١٤٣)

((قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَتَى إِلَهُ بَنِيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)) النحل (٢٦)

ويقول تعالى :

((وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)) (الحج ٣١)

فقد مثلت كلمة (خَر) في الآيات السابقة مشهداً صوتياً صاخباً شديد الوقع على النفس ، فكان من أثره - في الآية الأولى - أن صُعق موسى - عليه السلام فسقط على الأرض في سُرعة وشدة - (وصُعق الإنسان صُعقاً و صُعقاً ، فهو صُعِقٌ : غُشِيَ عليه وذهب عقله من صوت يسمعه كالهتزة الشديدة)<sup>(١)</sup>

وقد مثلت كلمة (خَر) في الآية الثانية هول الموقف وشدته ، فهو مشهد حسي يظهر فيه ضرب البنيان من أسفل فيخر من أعلى فينهار بتقلبه على

<sup>(١)</sup> ابن منظور - لسان العرب - ط ١ - دارالكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٣ - مادة (صعق)

رؤوسهم وقوله : (من فوقهم) بعد قوله تعالى : (السقف) وهو لا يكون إلا فوقهم لتجسيد المشهد بأركانه وأجزائه ، فيظهر الصرح الشامخ وهو يسقط في قوة ناشرا دويا من الصوت الشديد ، قال ابن الأثير : (ولذكر لفظه (فوقهم) فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تحس هذا من نفسك ، فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيّل إليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة)<sup>(١)</sup>.

أما خروار المشرك في الآية الثالثة ، فقد مثلته كلمة (خر) في اندفاع عنيف لأنه من مكان عال بعيد عن منال البشر ، فهو (من السماء) ، وقد صاحب هذا السقوط الشديد صوت هائل ، زاد من إبراز خريز الرياح وزمجرتها الرعدية ..

وقد ظهر جليا في هذا المشهد الصاخب ، معركة الخطف الدائرة بين الطيور في السماء ، فهي تتسابق إلى خطف الشوك ، وما يفلت من شيء فيكون مصيره الهلاك سحقا (سحق) .

وقد عكست الآية الكريمة بهذا التصوير البديع حال المشرك وضلاله ، وذلك عن طريق المقابلة بين طرفي المشهد (السماء) و (مكان سحق) ، و كأنها ترمم الضلال والتهيه في نفس المشرك ، فهو يرى نفسه وعمله في السماء ، في أعلى عليين ، فإذا به ينتهي إلى أسفل سافلين !!

.. وإذا نظرنا إلى الآيات السابقة ، وجدنا كلمة (خر) قد وردت في سياق الآية الأولى مع كلمة (ربه) لأن الخروار كان في مقام التربية والرعاية لموسى - عليه السلام - ولم يكن عذابا أو قضاء عليه ..

<sup>(١)</sup> انظر السطر ١٢٣/٢

أما في الآيتين الأخيرتين فقد وردت كلمة (خَرَّ) في سياق لفظ الجلالة (الله) والحديث عن مكر الكافرين وشركهم ، فكان الخرور عذابا وقضاء عليهم لأن العقيدة الصحيحة والتوحيد الخاص قد انتفيا من قلوبهم ..

وقد تأتي كلمة (خَرَّ) لترسم مشهدا حشيا خاشعا ، مصحوبا بصوت المناجاة والتضرع والإنابة ، فيظهر الموقف الإيماني بجلاله وروحانياته ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)) ص (٢٤)

((وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)) يوسف (١٠٠)

((أَنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)) السجدة (١٥)

إنه خرور جسّد روح الهويّ وقوة الاندفاع إلى السجود ، وهذا الخرور الحسي قد رسم في الحقيقة خرور القلب والوجدان ، فظهر أثره جليا على الجوارح .. وقد تضافر نسيج السياق بما يحمل من لغة ليبرز ذلك المشهد حيا مجسدا ، ففي الآية الأولى نجد حرف (الفاء) (فاستغفر) قد أفاد السرعة والتعقيب ليظهر هذا الموقف بما يحمله من إنابة وتضرع لله تعالى ، فيظهر داود عليه السلام وقد انتبه من اختبار الله له ، فیتحول سريعا إلى الاستغفار والخرور فكان الربط بالواو ، وهنا يظهر هذا التناغم النفسى فى تلاحق سريع ، عن طريق الواو (وظن) ، ثم الفاء (فاستغفر) ، ثم الواو (وخر) .

أما الآية الثانية فقد وردت في سياق حرف الواو الذي عمل على دقة نقل مشهود رفع الأبوين إلى مشهد الخرور ، وقام الطابق بين (رفع - خرّوا) بتتيمم أجزاء المشهد .

وقد استغنى الفعل (خرّوا) في الآية الثالثة عن الرابط لاعتماد على بديل قوى ، عمل على تحقيق عنصرى السرعة والمفاجأة معا ، ألا وهو (إذا) ، وفي ذلك إظهار لشخصية المؤمنين في استسلام تام لله تعالى وعدم انتردد في الانقياد والخضوع .. وقد ظهر التناغم الصوتي والنفسي في السياق من أجل إظهار هذا الخرور متكامل الأركان والنضجات ، وذلك في التعبير بالحال (سجدا) ثم الانتقال إلى الجملة الفعلية . ((وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)) ثم الانتقال إلى الجملة الاسمية : ((وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)) .. والتعبير بالحال (سجدا) لأجل إظهار حقيقة المسجود وهو الخضوع والتذلل لله في كل أحوال حياتهم ، وهم في ذلك يداومون التسبيح والحمد لله لا يفترّون عنهما ، بل إنهم لا ينتهون من ذكر إلا ويجددونه على الدوام ولذلك عبر بالجملة الفعلية ، أما التعبير بالجملة الاسمية في وصفهم بعدم الكبر، فذلك للدلالة على أنهم ثابتون على التواضع لا ينفكون عنه ، ولا تتفك هذه الصفة عنهم ، بل تظل ثابتة وملزمة لهم في كل أحوال حياتهم.

ويشبه الجرس الصوتي لكلمة (خرّوا) ، كلمة (خوّار) وهو صوت الثور ، ومن أصوات البقر والغنم والظباء والسهام - كما في اللسان - وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في موضوعين اثنين ، الأول :

((وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُلَيْهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا كَلِمَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)) (الأعراف ١٤٨)

والموضع الثاني في قوله تعالى :

((فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَاسِيَ أَفَلَا يَرْوُونَ أَنَّهُ يَزِجُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعًا)) طه (٨٨ - ٨٩)

فصوت العجل وخواره ، قد رسم المشهد صوتيا وحميا في الأيتين ، وقد جاءت الأيتان بكلمة (جسدا) منصوبة على البدل ، لبيان صورة العجل واستحضاره في الأذهان ، ومن المفسرين من قال بأنه صار عجلا بلحمه ودمه له خوار ، ومنهم من لم يذهب هذا المذهب ، والله تعالى أعلم .

وليس الأيتان من قبيل التكرار ، ولكن جاءت آية (الأعراف) لإظهار جزء من المشهد ، وهو بداية اتخاذ العجل وصدور الصوت ، ولذلك ختمت الآية بقوله : (اتخذوه وكاثوا ظالمين) ، فلم يكن ذلك أول ظلمهم ..

أما آية (طه) فجاءت لإظهار جزء آخر من ذلك المشهد ، وهو إخراج العجل على أنه إله يعبد من دون الله بعد اتخاذه وصنعه ، ولذلك جاء التبيكيت هنا بقوله تعالى : (أفلا ترتبوا على الفاء في (فأخرج) ، بينما لم تأت الفاء في الآية الأولى لأنها - كما ذكرنا - كانت بداية المشهد .

**صِرٌّ**  
الصَّيْرُ وَالصَّرَّةُ : شدة البرد ، وريح صِرٌّ صَرَصَر : شديد البرد ، وقيل شديدة الصوت ، وَصَرَّ يَصِرُّ صَرًّا وَصَرِيرًا وَصَرَصَر : صَوْتٌ وَصَاحٌ أَشَدُّ الصَّيَاحِ <sup>(١)</sup>

وقد وردت هذه الكلمة في سياقات عديدة في القرآن الكريم تحمل دلالات مختلفة ، يقول تعالى :

<sup>(١)</sup> اللسان . مادة (صرر)



((مَثَلُ مَا يَنْفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ)) آل عمران (١١٧).

وقال تعالى عن عاد :

((وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)) الحاقة (٦)

وقال تعالى عن هلاك عاد أيضا :

((فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخَزْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) فصلت (١٦)

وقال تعالى - أيضا - عن عاد :

((إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)) النحر (١٩)

فقد تباينت السياقات فيما سبق بما تحمله من الصّر .. (ريح فيها صر) - (بريح صرصر) - (ريحا صرصر) في أيام نحسات) - (ريحا صرصر) في يوم نحس مستمر) .. وهي ريح شديدة تطلق الصفير والصياح المصاحب للبرد الشديد. ففي الآية الأولى جعل الريح تحمل الصر فقال : (فيها) ، لبيان حسرة الخاسرين بعد فرحتهم بهبوب الريح لتلقيح الثمر ، فإذا بها تحمل في طياتها الهلاك ، وكذا شأن الضالين الذين ينفقون أموالهم بغية تحقيق آمالهم ، فإذا بهم قد خسروا وهلكوا وهم يترقبون الريح والفوز .

أما الآيات الثلاثة الأخيرة فهي كلها تتحدث عن هلاك عاد بالريح الصرصر وليس بالريح الصر ، فالصر كما ذكرنا تخفى ما بداخلها ، وكأنها

مصرورة - أى مربوطة - بإحكام لنلا تخرج ما فيها إلا عند الحاجة .. أما هلاك عاد فكان بالرياح الصرصر ، والكلمة بتكرار أحرفها توحى بشدة صوتها وكربها ، ولكنه قال مرة : (بريح صرصر عاتية) بالجر والوصف وكأننا نرى الأشياء تجر مع الرياح كلما حدث هذا الدوى الصوتى فى الكسرة الطويلة للراء فى (رياح) ثم توالى الصوت المنون المجرور فى تلاحق (بريح صرصر عاتية) .. وهذا العذاب الصرصر يزيد هولاً وفزعاً إذا جاء على غرة ، ولم يعلم المعذبون مصدره .. وهذا المشهد قد أوحى به بناء الفعل للمجهول (فاهلكوا) .

وفى الآيتين الأخيرتين : (ريحا صرصرًا) بالنصب والتنوين المطلق ، ليناسب جو المشهد من إرسال الرياح وإطلاقها عليهم ، ولذلك صدرت الآيتان بقوله تعالى : (أرسلنا عليهم) .. وجاءت آية فصلت بالفاء : (فأرسلنا) دون آية القمر : (إنا أرسلنا) ..

ومن الكلمات التى ترسم المشهد الصوتى - أيضا - كلمة : (الصدع) وهو الشق فى الشئ الصلب كالزجاجاة والحائط وغيرها - كما فى اللسان - وهذا التصدع لابد أن يصحبه دوى صوتى صاخب ، وهذا الدوى الصوتى يختلف باختلاف السياق الوارد فيه ، وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة منها :

((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)) الحجر (١٥)

فالأمر للنبي ﷺ بأن يصدع بما يأمره الله (به) على تقدير محذوف للجار والمجرور ، أى ما تؤمر به ، والصدع بالدعوة يلزمها الجهر بها وقرع الحجة بالحجة .. وقد أثار السياق كلمة (فاصدع) على (فاجهر) مثلاً لبيان أثر الدعوة الإسلامية فى إزالة الشرك وكأنه حائط يتصدع وينهار ، أو ليل بهيم أسود حالك وفجر الدعوة يصدعه ويشقه ليزيله .

وقوله تعالى :

((لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مَتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)) الحشر (٢١)

فتتحقق الرؤيا (لرأيناه) بمصاحبة صوت التصدع (متصدعا) لتظهر صورة ذلك الجبل بشموخه وثباته فيرتجف في تصدع وخرور .. وقد أوحى كلمتا : (خاشعا - خشيية) بما بينهما من أصوات متشابهة بصوت شجي يوقظ الروح ويبعثها في جو من التبتل والابتهاال إلى الله ، وكأنه تصدع بكائي فيه التضرع والإنابة .  
وفي قوله تعالى :

((وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ)) الطارق (١٢)

فالأرض تتصدع أى تتشقق ليخرج منها النبات وفي هذا آية للم تأمل في النبات وعوده الرقيق الضعيف ، كيف يشق الأرض فيصدعها ويخرج .. وعلاقة تصدع الأرض بالقول الفصل علاقة قوية ذات دلالات بليغة إذا ربطنا بينهما وبين ما سبقها من آيات حيث يقول تعالى :

((فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ)) .

فسياق الآيات يتحدث عن قدرة الله تعالى في خلق الإنسان ، فقد خلقه من ذلك الماء الذى يتدفق في داخله .. وهو سبحانه قادر على إرجاعه مرة أخرى يوم البعث .. ثم كان القسم بالسماء صاحبة الرجوع - المطر - ترجع رزق

العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكوا مواشيهم<sup>(١)</sup> . ثم القسم بالأرض صاحبة الانصداع عن النبات ، فكان القسم بالسماء والأرض لحملهما مصدر الحياة للإنسان من ماء وزرع بعد خلقه ، ثم يأتي بعد ذلك المقسم عليه (إنه لقول فصل) بالتأكيد بـ (إن) و(اللام) لإفادة إنكار المخاطبين لهذا القول الحق .. فالعلاقة - إذن - علاقة ترابطية ، بداية من الحديث عن خلق الإنسان ضعيفا وبعثه ضعيفا لا يستطيع دفع العذاب عن نفسه ، إلى القسم بأسباب رزقه ووسائل حفظ حياته ، فكيف بمن هذا شأنه أن ينكر حقيقة القرآن ؟!

وقد حملت الآيات سابقا بلاغيا تمثل في الأسلوب الإنشائي (فليُنظر) بلام الأمر دون فعل الأمر المباشر للتأكيد والتمكين وليكون نظر التأمل مستمرا ومتجددا .. ثم الإبهام والتوضيح في قوله : (وَمِمَّا خَلَقَ خَلْقٌ مِّنْ مَّاءٍ دَافِقٍ) ، (إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر) . فقوله (مم خلق) على الاستفهام والإبهام يناسب الأمر بالنظر في مطلع الآية الكريمة ، فيتحرك الوعي والإدراك لتلقف الفكرة في فهم وثبات .. أما تشابه الأطراف فقد ظهر في ختم الآية بقوله : (خلق) وهو ما بدأت به الآية التي تليها : (خلق من ماء دافق) .

#### \* الكلمة الصوتية في مشاهد القيامة والنار

كان من طبيعة هذه المشاهد أن تشتمل على كلمات ذات جرس عال وإيقاع عنيف لما تحتوى عليه هذه المشاهد من فزع وهول وعذاب ، يبرز في صراخ أهله وبكائهم وعويلهم ، يقول تعالى :

((فَلَا تَكُونُوا تَكْؤُمِينَ وَلَكُمْ مَوْتٌ مِّمَّا أَتَيْتُمْ بِصُلُوبٍ وَأَنْتُمْ بِمَصْرِحٍ))

(إبراهيم ٢٢)

(١) ابن كثير - ١٢٨/٣

فهنا تظهر اللوحة الصوتية بما فيها من صراخ متداخل بين الشيطان وأتباعه ، فلا يستطيع أحدهما أن يغيث الآخر ويذهب سبب صراخه .  
وقوله تعالى :

((وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ  
أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ  
نَصِيرٍ)) فلتر (٣٧)

فقله : (يصرخون) غير : (يصرخون) ، فالأولى ذات جرس قوى غليظ بما اشتملت عليه من أصوات الصداد مع الخاء ، ثم دخول حرف الطاء بينهما قاطعا الإيقاع المتعالي الصادر من الصراخ ، وكأنها حشرة تقطع أحبالهم الصوتية في حناجرهم ..

((وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا) ، فالاصطراخ يرتفع من حناجرهم مختلطا بالدعاء (ربنا) ، وكانت إجابتهم عن طريق الاستفهام التوبيخي : (أولم نعلمكم) ، والأمر (فذوقوا) .. أى : فيقال لهم : (أولم نعلمكم) ، فيقولون : بلى ، فيقال لهم : (فذوقوا) ، وهذا القول وجوابه محذوف للتحقير من شأنهم . و (الدع) الدفع في الظاهر بعنف فيصدر المدفوع صوتا مرجفا ، ولم يأت (الدع) في القرآن الكريم إلا في ثلاثة مواضع كلها تحمل عنف الموقف وشدته ، يقول تعالى :

((يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً)) الطور (١٣)

(يدعون - دعا) فصياغة الكلمة وتأكيدا بالمصدر يوحى بطبيعة المشهد الصوتي والحركي ، فيتمثل مشهد المدفوعين إلى جهنم ، وهم يضربون

بقوة في ظهورهم ، فترتجف صدورهم محدثة صوتا عنيقا يغلب على ظهوره حرف العين .. وفي موضع آخر يقول الله تعالى :

((أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)) (الماعون ٢)

ورجع الصوت في ظهر اليتيم ، يظهر أثر ما يلقاه من ألم معنوي وانكسار نفسه من جراء الدفع ، أو الزجر والنهر . وكذلك قوله تعالى :

((فُكِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)) (الشعراء ١٤)

فكلمة (ككبوا) "يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها ، ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة : "الصاخة" و "الطامة" . والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها ، وشقته للهواء شقا ، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا ، والطامة لفظة ذات دوى وطنين ، تخيل إليك جرسها المدوى أنها تطم وتعم ، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه ..

وقد يشتر الجرس والظل في لفظ واحد مثل (يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعًّا) فلفظ الدع يصور مدلوله بجرسه وظله جميعا ، ومما يلاحظ هنا أن "الدع" هو الدفع في الظهور بعنف ، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتا غير إرادي فيه عين ساكنة هكذا : "أع" ، وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس "الدع" <sup>(١)</sup>.

ويشتد الصوت الصادر من النفخ في الصور حتى يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله : يقول تعالى :

<sup>(١)</sup> سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ط ١٤٤٠ - دار الشروق - بيروت - ١٩٩٣ - ص ٩٣

((وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)) الزمر (٦٨)

ويبلغ الإعجاز الصوتي مبلغه عندما يكون سببا في الصعق والموت أولا ، ثم هو نفسه يكون سببا في البعث والحياة بعد الموت .. وكذا صوت النفخ في قوله تعالى :  
((فَإِذَا نُفِثَ فِي النُّفُورِ ، فَذَلِكَ يَوْمُنَا يَوْمَ عَسِيرٍ)) المندر (٩٨)

وكذا عنف جرس كلمة (الصاخة) و (الحاققة) بما فيهما من صياغة ، وحرف المد ، والتضعيف ، وكلمة : (الطامة) في قوله تعالى :

((فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى)) النازعات (٣٤)

أى : الحادثة ، أو "الوقعة التي تطم" ، أى تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها في نوعها ، مأخوذ من طم الماء ، إذا غمر الأشياء ، وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله إلا في الأمور المهيولة ثم بولغ في تشخيص هولها بأن وصفت بـ "الكبرى" فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن هذه الحادثة من الأهوال<sup>(١)</sup>

ونكاد نرى الأرض وهى تدك من هول الصوت فى قوله تعالى :

((كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)) الفجر (٢٣-٢١)

<sup>(١)</sup> الدرر والنور ٩٠/٣٠

فتكرر الدك ثلاث مرات ، فأحدث إقاعا قويا ، ولا سيما تكراره متلاحقا كتلاحق الصوت المصاحب لانتهيار الأرض ودكها ، وجاء الفعل (جئ) مبنيا للمجهول لتسليط المشهد على المجئ به وهي جهنم - عيانا بالله- فيؤتى بها فيزداد المشهد رجفة وخوفا .

وتأتى كلمات صوتية شديدة الإيقاع لترسم جو القيامة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم كقوله تعالى :

((إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ))

وكذا صوت القرع يظهره حرف القاف المشترك مع العين ، فيقرع النفوس والقلوب قبل الأذان : (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَزَالُهَا الْقَارِعَةُ) ، فكيف إذا تكرر ذلك اللفظ الغليظ ثلاث مرات فى سياق الاستفهام التهويلى ؟!

وتأتى الكلمة الصوتية بجرسها العنيف الصاخب لتتناسب الموضوع الذى سيقف فيه : كقوله تعالى

((وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ..)) (عدىات (١-٦))

فالخيل تضج : تصيح ، وتقدح : تضرب الأرض بأرجلها فيتطاير الشرر من تحت أقدامها ، وتثير النقع - التراب والغبار - فى جو المكان . فهو جو مضطرب صاخب .. وقد ناسبه هذه الكلمات ذات الإيقاع السريع والجرس العالى ، وهو جو يماثل اضطراب الكنود - الحجود - وانفطار فطرته واضطرابها .



وقد تأتي الكلمة لترسم صورة صوتية متكاملة لأهل العذاب في النار ، يقول تعالى :

((هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ . فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُودُ ، وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ)) . الحج (٢٠-١٦)

فيبتدأ صوت تقطيع الثياب النيرانية ، مع صوت صبب الحميم فوق الرؤوس ، مع صوت المقامع الحديدية ، ليوحى ذلك كله بطبيعة المشهد الحافل بالأركان والألوان والحركات .. ويظهر في المشهد موسيقى صاخبة مصدرها تتماسق الكلمة وتلاحقها : (اختصموا - قطعت - يصب - يصهر - مقامع) .

وتظهر على الوجه الآخر الكلمة الصوتية الحانية ، لتبرز مقام الرحمة والتكريم ، وما أكثر ذلك في القرآن الكريم .. فمن ذلك قوله تعالى :

((فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَابُنْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)) . الصافات (١٠٥-١٠٢)

(قال يابني - قال يابنت - وناديناه) كلمات اشتملت على أصوات رقيقة حانية تحمل الرحمة والشفقة . وكذلك قوله تعالى :

((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ)) . النجر (٢٠-٢٧) .

وقد يأتي الإطار العام للمشهد - يحمل إيقاعا موسيقيا رقيقا لمناسبة الموضوع الذي اشتملت عليه السورة ، كقوله تعالى :

((إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُمْ فِيهَا يُلَاقُونَ الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ . وَلَهُمْ فِيهَا مَزْجٌ مِمَّا يَشَاءُونَ وَفِيهَا يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَمِمَّا يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَمِمَّا يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَمِمَّا يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ .)) (الحج (٢٣-٢٤) .

فالإيقاع السائد في ذلك المشهد العظيم إيقاع ترتيب الحركات والنغمات ، هادئ الجرس شجي الصوت : (آمنوا - الصالحات - الأنهار - - يحلون - ذهب ولؤلؤا - حرير - وهودوا) فهي كلمات لينة سلسة ، كأنها مشتقة من سلاسة الأنهار ونعومة الحرير . وكقوله تعالى في سورة الضحى :

((وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .))

لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديدة ، تتسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير ، الموسيقى الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي . أصفى آتَيْن من آونة الليل والنهار ، وأشف آتَيْن تسرى فيها التأملات ، ومماقيهما في اللفظ المناسب<sup>(١)</sup> .

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٢٥، ١٢٦

### \* الكلمة والسياق

- تشابه الكلمة : قد تأتي الكلمة مشابهة لأختها أو مكروه في سياق آخر من القرآن ولكن بدلالة أخرى يفيدها هذا السياق تبعاً لما يعالجه من موضوع أو حدث ، ونقف مع بعض النماذج من هذا التشابه الوارد في القرآن الكريم ، يقول تعالى :

((إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُتُبَاتًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)) الأنعام (٩٥-٩٦) .

(فالق الحب - يخرج الحي - ومخرج الميت - فالق الإصباح - وجعل الليل) تغيرت الكلمات من اسم الفاعل إلى الفعل ثم إلى اسم الفاعل ثم إلى الفعل ، فلم تكن الكلمات على وتيرة واحدة .. فهو مشهد حي زخرة بالحياة بعد العدم ، يشهد بقدرة الله تعالى ..

(فالق الحب) - (فالق الإصباح) إنه تعبير يدل على استمرار تدفق الحياة وتجدها في النبات ، كتدفق الإصباح والحياة في الكون بعد الليل .. "إنه ليس إصباح واحد هو الذى فلقته القدرة الإلهية ، ولكنه إصباح يولد كل يوم .. يحيا ، ويموت ، ويموت ، ويحيا ، وهكذا أبد الدهر ، ولو جاء النظم هكذا : "فلق الإصباح" إنك لا ترى إلا صباحاً واحداً يغيب ثم يظهر ، ويظهر ثم يختفي ، وهو هو لا يتغير وجهه ، ولا يتغير الزمن حوله .. و "الإصباح" فى مواجهة " الحب والنوى" . إنه ليس صباحاً ، ولكنه "إصباح" .. هو جنين مضمر فى أحشاء الليل ، أو هو ليل يستجنى فى أحشائه "إصباح" فإذا انفلق هذا "الإصباح" لاح الصبح وظهر" (١) .

(١) الأستاذ عبد الكريم الخطيب - إعجاز القرآن - ط١ - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٦٤ - ١٩٠/١

أما الليل فقد جعله الله للسكن والراحة ، وجعل الشمس للضياء ، والقمر للنور ، وجعلهما لحساب السنين ، فليس في هذه المخلوقات تدفق الحياة التي نجدها في الحب والإصباح بحيويتها وتجدهما ولذلك جاء التعبير بالفعل (جعل) ليبدل على تكرار الحدث لغرض محدد .. ويقول تعالى :

((أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا)) نوح (١٦-١٥) .

فجاء التعبير عن القمر والشمس بالفعل (جعل) للدلالة على الحدث المتكرر لوظيفة معينة ، وهي الإنارة للقمر ، والسراج للشمس ، فالقمر جسم معتم ، وجرج مظلم ، "وإنما يضيئ بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي (سراجة) ، فالنور لا يكون من ذات نفسه ابتداء ، ولا بد له من مصدر يبعثه ، فذكر السراج بعد النور ودليل على أن هذا مصدره ذلك" (١)

أما التعبير بالفعل (خلق) فهو يأتي فيما لا يتكرر ، كالأية السابقة ، وكذا هذا الفعل في كل ما ورد في القرآن الكريم من الخلق والجعل ، فمن ذلك قوله تعالى :

((قُلْ إِنِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا))

فصلت (٩)

وقوله تعالى :

((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)) الروم (٥٤)

(١) (القامي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط٤ - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٤٥ - ص ٢٣٦ .

وقوله تعالى :

((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)) فاطر (١١)

- المطر والغيث :

لم تحمل سياقات القرآن كلمة المطر إلا في العذاب والأذى وقد وردت في خمسة عشر موضعا ، منها قوله تعالى :

((وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)) الأعراف (٨٤)

((وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ)) هود (٨٢)

((وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ)) الشعراء (١٧٣)

((وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ)) النساء (١٠٢)

أما في مقام الرحمة والإغاثة ، فجاء التعبير بكلمة (الغيث) ، وذلك في ثلاثة مواضع هي في قوله تعالى :

((إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)) لقمان (٣٤)

((وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ)) الشورى (٢٨)

((كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا)) الحديد (٢٠)

فكان الغيث في هذه المواضع (مواضع إظهار رحمة الله تعالى) يعبر عن حالة من نزل عليهم الغيث ، فقد وصلوا إلى مرحلة بالغة الصعوبة والشدة ، ولذلك قرن السياق كلمة (الغيث) مع الساعة وهولها وخفاء علمها ، وعجز الإنسان عن إدراك علم ما في الأرحام ، وقرنها في الآية الثانية بالقنوط ، فجاء نشر الرحمة ، وفي الثالثة قرنها بأزهي حالات الزرع والنبات ووصول الإنسان إلى منتهى سعادته به ، ثم يزول وينتهي .

أما مواضع ذكر نزول (الماء) فهي كثيرة في القرآن الكريم (وتأتى في موضع إظهار قدرة الله) ، وتأتى بلفظ (أنزل - نزل - ينزل) للدلالة على علو الماء المنزل ، وهي إشارة لإعجاز عملية التكوين والإنزال ، فهي مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى ، يعجز الخلق عن إدراكها ، ولذلك يأتى - دائما - التعبير عن نزول الماء من السماء بإسناده إلى لفظ الجلالة (الله) دون الربوبية (رب) ، وفي مواضع قليلة بالضمير ، منها قوله تعالى :

((وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)) المؤمنون (١٨)

((وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)) الفرقان (٤٨)

((وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا)) النبا (١٤)

لا يشار بها إلا للعبيد على وجه الخصوص ، ولها خصوصية أخرى ، وهي : لا تلحقها كاف الخطاب ، وها التثنية مثل هناك ، ها هنا .. وهذه الخصوصية المعنوية لهذا الاسم جعلته يأتى في مواضع محدودة في القرآن الكريم لها - أيضا - خصوصية عظيمة من حيث الحدث أو تمثيل الموقف ، وقد جاء في أربعة مواضع هي : قوله تعالى :

((وَبِاللَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَائِنَمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)) البقرة (١١٥)

والآية سبقت في إظهار خصوصية ملك الله تعالى ، (أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله ، هو مالکها ومتوليها (فائنما تولوا) ففى أى مكان فعلتم التولية (فتم وجه الله) أى جهته التى أمر بها ورضيها" <sup>(١)</sup> وقوله تعالى :

((وَأَزَلَفْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ)) الشعراء (٦٤)

أى قربنا فرعون وجنده من البحر ، وهو مقام إظهار حدث خاص ومعجزة تعلوهما المهابة والرجفة ، وذلك فى إغراق الطاغية وجنده بعده طول فساد وإفساد .

قوله تعالى : ((وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)) الإنسان (٢٠)

والآية الكريمة تصور مقاما غيبيا ، قد تناهى فى العظمة والجلال وبعد المكانة وفعتها ، لأن الحديث عن نعيم الجنة ، وملكها الكبير . وقوله تعالى :

((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ تَمَّ آمِينَ)) التكوين (٢١-١٩)

فجاء استخدام (تم) هنا بخصوصيتها المذكورة مسابقة ، للدلالة على المكانة الرفيعة الخاصة فى هذا المقام العلوى لجبريل عليه السلام - والنبي

<sup>(١)</sup> هــ عبرى - ١٨٠/١

محمد ﷺ .. فجبريل : "ليس هو من أفناد .. أى جماعات .. الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، معتنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة ، وقوله تعالى : (أمين) صفة لجبريل بالأمارة ، وهذا عظيم جدا ، أن الرب عز وجل زكى عبده ورسوله جبريل ، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدا ﷺ " (١)

\* أكَ - تَكَ - يَكُ

هى (أكون - يكون - تكون) ، فإذا دخل عليها الجازم صارت لم أكن - لم يكن - لم تكن ، ثم تحذف النون تخفيفا كما ذكر النحاة ..

وقد جاءت فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة ، إلا (أَكَ) فإنها لم تأت إلا فى موضع واحد فى سورة مريم : ((قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِيْ عَلَآمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِيْ يَكْرًا وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)) الآية (٢٠) .

وحذف النون فيه إشارة إلى غرابة الموقف ، بل هو أغرب موقف فى القرآن وفى حياة الخلق عموما .. فهو موقف وحيد فريد فى الحياة ، وهذه الصيغة وحيدة فريدة فى القرآن الكريم كله ، ويدل الحذف أيضا على حذف أدنى شبهة فى حق مريم عليها السلام ومبالغة فى تنزيهها .

وبالنظر للمسايق التى ورد فيها هذا التعبير ، نجدها - والله أعلم - أنها لم تأت للتخفيف وحسب ، ولكنها أتت لعلة أبلغ من ذلك وأهم ، بدليل أن هذا التعبير قد جاء فى سياقات أخرى عديدة دون حذف النون .. فمثلا يقول تعالى :

((وَإِنْ نَكَ حَسَنَةً يَّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)) النساء (٤٠)



فحذف النون إشارة إلى التقليل .. فلا يضيع شيء عند الله تعالى ، وحتى ولو كانت أقل حسنة فإن الله يضاعفها ، وعبر بـ (لذنه) دون (عنده) مثلاً لما تشتمله الأولى على اللين والرحمة .

ومما يشهد لذلك - أيضاً - مجئ حذف النون من (تكن) في سياق التقليل كما في قوله تعالى :

((يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ نَافِثَةَ ابْنِكَ مَثْقَلٌ حَبْءٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيَّ صَخْرَةً أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)) لقمان (١٦)

فالمقام مقام إظهار قدرة الله على الإتيان بالشيء مهما دق أو صغر فكان حذف النون إشارة إلى هذه القلة ، وقد ساعد السياق على ذلك بما اشتمل عليه من قول (إن) للتقليل دون (إذا) الدالة على التحقيق وقوله (مثقال) و (حبة) بالإفراد والتثنية التقليل ، وقوله (خردل) ..

قوله تعالى :  
((وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)) النحل (١٢٧)

وقوله تعالى :  
((وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)) النمل (٧٠)

خصت هذه الآية - آية النحل - بالحذف دون آية النمل "موافقة لما قبلها ، وهو قوله :

((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) النحل (١٢٠)

وهذه الآية - آية النحل - نزلت تسليية للنبي ﷺ حين قتل عمه حمزة ومثل به ، فقال عليه الصلاة والسلام : "لأفعلن بهم ولأصنعن" . فأنزل الله تعالى :

((وَلَمَّا صَبَرْتُمْ لَهَوَّ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)) النحل (١٢٧-١٢٦)

فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التسلي . وجاء في سورة النمل على القياس ، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك <sup>(١)</sup> وقوله تعالى :

((وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)) مود (١٧) وقوله تعالى :

((فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْذُّهُ لَاءُ ، مَا يَعِدُونَ إِلَّا كَمَا يَعِدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوفُونَ مِّمَّا تَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)) مود (١٠٩)

فربما كان حذف النون في هذين الوضعين لنكتة بلاغية قد أشار إليها الشوكاني في قوله "وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك ، فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبدا" <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِيَ عَلَامٌ كَمَا تَبَيَّنَ إِذَا أَنَا فِي شَكٍّ مِّنْ شَيْءٍ . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)) مريم (٦٠-٥٩)

وقوله تعالى :

<sup>(١)</sup> الكرمان - ١٩٧٦ - ص ١٢٦، ١٢٧

<sup>(٢)</sup> الدرر - ج ٢ - ص ٦٨٢، ٦٨٣

((وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتَّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلَ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا)) مريم (٦٦-٦٧)

وقوله تعالى :

((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا)) (الإنسان (١))

فحذفت النون من آيتي (مريم) ، وثبتت في آية (الإنسان) .. فالسياق في آيتي مريم قد دل على موقف المتعجب ، ففي الآية الأولى تعجب زكريا - عليه السلام - من إنجاب له يحيى في ظل استحالة ذلك من الناحية العقلية والتجريبية ، فزوجته عاقر وهو قد بلغ من الكبر عتيا .. وفي الآية الثانية يظهر موقف الإنسان المتعجب في إنكار : هل هناك بعث بعد الموت ؟! فالجواب في الآيتين - إذن - مبني على إنكار وتعجب .. أما آية الإنسان فالخبر مسوق ابتداء ، دون أن يبنى على موقف سابق فكان الإثبات أولى .

#### \* الألباب والقلوب

لَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، ولبابه : خالصه وخياره ، واللباب الخالص من كل شئ ، واللب : العقل <sup>(١)</sup> وقد وردت كلمة (الألباب) في كثير من المواضع في القرآن الكريم <sup>(٢)</sup> ، وهي لم تأت إلا جمعا ، ولا تأت إلا في موضع فيه حث على التدبر والتذكر أو الهداية والتقوى ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَمَا يَذْكُرْ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)) البقرة (٢٦٩)

وقوله تعالى : ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)) آل عمران (١٩٠)

<sup>(١)</sup> اللسان مادة (لب) .

<sup>(٢)</sup> ستة عشر موضعا .

وقوله تعالى : (( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ))

يوسف (١١١)

ص (٢٩)

وقوله تعالى : (( لِيَذْكُرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ))

بينما يأتي ذكر (القلب) مفردا ومنتى ومجموعا ، مجردا أو مضافا إلى ضمير المذكر أو المؤنث .. وقد يأتي ذكر القلب للدلالة على عاطفة الإنسان وأحاسيسه وتأثره ، كقوله تعالى :

الزمر (٢٢)

((قَوْلٍ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

الزمر (٢٣)

وقوله تعالى : (( ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ))

فدلت كلمة (القلب) في الآية الأولى على قسوة الأحاسيس والمشاعر ، ويعد التأثر لذكر الله ، ودلت في الثانية على رقة العاطفة ولينها ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

ق عمران (١٥٩)

((وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ))

وقوله تعالى :

((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)) الحديد (١٦)

وربما جاء القلب ليبين نية الإنسان وعزمه ، كقوله تعالى :

البقرة (٢٨٣)

((وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ))

((يَقُولُونَ يَأْفُواهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)) آل عمران (١٦٧)

((أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)) النساء (٦٣)

((وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ)) الأحزاب (٥)

وقد يأتي ذكر القلب للدلالة على روع الإنسان ورباطه جائسه أو هلعه وجزعه ، كقوله تعالى :

((وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ)) آل عمران (١٢٦)

((وَلِيُزَيِّطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُكَيِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)) الأنفال (١١)

((إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا)) القصص (١٠)

- وفي بيان الهلع والجزع ، قال تعالى :

((وَأَنذَرُهم يَوْمَ الْأُتْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَافٍمِينَ)) غافر (١٨)

((يَوْمَ تَرَجَفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّافِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)) الأنعام (٦٨-٦٩)

((وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)) الأحزاب (٢٦)

وقد يأتي ذكر القلب في مقام عدم التدبر والفهم والدلالة على طمس البصيرة والغفلة ، كقوله تعالى :

- ((كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)) الأعراف (١٠١)  
 ((لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا)) الأعراف (١٧٩)  
 ((وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)) الكهف (٢٨)  
 ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) الحج (٤٦)  
 ((كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) المطففين (١٤)  
 ((أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) محمد ﷺ (٢٤)

#### \* الفوه واللسان

جاء ذكر الفيه في القرآن الكريم في مواضع عديدة <sup>(١)</sup> كلها على صيغة الجمع إلا موضعاً واحداً في قوله تعالى :

((لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْنِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)) الرعد (١٤)

والسياقات التي وردت فيها هذه الكلمة ، تحمل كلها الهم والتهقير أو بيان الكذب والبهتان ، كقوله تعالى :

((قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)) آل عمران (١١٨)

<sup>(١)</sup> في ثلاثة عشر موضعاً

((يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ))  
التوبة (٢٢)

((كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا))  
الكهف (٥)

- أما ذكر اللسان فيأتي في مواضع المدح والذم على السواء ، كقوله تعالى :

((وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا))  
مريم (٥٠)

أى : جعل لهم اللسان الحسن .  
وكقوله تعالى :

((فَاتِمَا يَسْرِنَاهُ يَلِسَاتِكَ لُتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَتَذَرِ بِهِ قَوْمًا لُدًّا))  
مريم (٩٧)

وكقوله تعالى فى الذم :

((وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى))  
النحل (٦٢)

- وقد يأتى ذكر اللسان على سبيل المجاز ، كقوله تعالى :

((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلِسَانَ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ))  
إبراهيم (٤)

أى بلغة قومه .  
\* يقول تعالى :

((وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ))  
 آل عمران (١٦٧)

ويقول تعالى :  
 ((سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا))  
 الفتح (١١)

فجاء التعبير (بأفواههم) في آية (آل عمران) ، وجاء التعبير (بالسنتهم) في آية (الفتح) ، والعلة في ذلك - والله أعلم - أن آية آل عمران تحدثت عن المنافقين وهم أشد خبثًا وخطراً من الكافرين ، فنامسبهم الأفواه ، لبيان أن كلامهم لم يجاوز أفواههم ، وإنما كان خارجاً عن الحقيقة .. أما في آية الفتح ، فجاء الحديث عن قوم مخصوصين وهم الأعراب الذين تخلوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، ولذلك جاء التصريح بقوله : (لكم) في قوله : (قل فمَنْ يملك لكم من الله شيئاً) ، على حين لم يأت التصريح بها في آية المائدة في قوله تعالى :  
 ((قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا))  
 آية (١٧)

فهذه الآية الكريمة عامة في المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً ، فليس هنا مخاطب خاص (١)

(١) كشف اللعان ص ١٤٧



#### \* تفرد الكلمة :

إن "المعيار الذي نقيس عليه تصنيف الكلمات بأنها مألوفة أو بعيدة المعنى ، معيار شخصي ، فيجب أن نضع القارئ أو المستمع في عين الاعتبار من حيث معرفتهم بهذه الكلمات أولاً .. ولو كان لديك كلمتان بنفس المعنى ، فمن الأفضل اختيار الكلمة الأقصر ، ليس لاختصار الوقت ، ولكن لأن الكلمات القصيرة تبدو أكثر ألفة لدى القراء والمستمعين ، ولكن هذا لا ينفي أن هناك مجموعة من الكلمات ذات الخمس مقاطع تكون مألوفة أكثر من أخريات ذوات مقطع واحد<sup>(١)</sup> .. والقرآن الكريم قد خاطب العرب بما عرفوه وألفوه ، فلم يكن أسلوبه غريباً عليهم ، حتى الكلمات التي عدها العلماء غريبة ووحيدة في القرآن ، قد عرفها العرب واستخدمها الشعراء في أشعارهم ، بل صارت الكلمات الثقيلة الأحرف والنطق نحو (فسيكفيهم الله) و (انشأتم) مستساغة المنطق والفهم لاستدعاء السياق لها ..

وقد أتت بعض الكلمات وحيدة في القرآن الكريم كله ، وذلك من حيث الصياغة والمادة ، أو من حيث الصياغة فقط وقد وردت في مسائل نافع بن الأزرق .

#### ينعيه :

قال تعالى : ((انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)) الأثام (١٦)

(ينعيه) أى : نضجه ، وهذه الكلمة لم تتكرر في القرآن الكريم في صيغتها ومادتها ، وذلك لأن سياقها لم يتكرر ، فالأمر هنا بنظر التأمل والتدبر ، ليرى الإنسان قدرة الله في الثمر ونضجه وكيف تحول من حبة في الأرض إلى ثمر ناضج معتدل ..

<sup>(١)</sup> Dennis Freeborn : Style, text Analysis and Linguistic Criticism. A Course Book in English grammar Christine Medonald, 2nd Edition, 1996 P.P. 95.

وقد أتى الحديث عن الثمر في القرآن الكريم في عشرين موضعاً غير  
الموضع السابق ، ولم يأت الأمر بالنظر إلا في هذا الموضع ، وكان سياق  
الآيات الأخرى في معظمها يحمل التذكير بنعمة الله تعالى ، كقوله :

((كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ))  
الأعمال (١٤١)

((وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ))  
إبراهيم (٣٢)

((يُنَبِّئُكُمْ بِهِ الْزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ))  
النحل (١١)

\* ريشا : قال تعالى :

((يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ  
التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ))  
الأعراف (٣٦)

(ريشا) الخصب والمعاش والحال والأثاث واللباس الحسن الفاخر<sup>(١)</sup>  
فجمعت الكلمة كل مظاهر الزينة بعد ستر العورة وسد الضرورة لم يذكر في  
القرآن الكريم غير هذه الكلمة ، وقد جمعت كل المعاني المذكورة في لفظ واحد ،  
ولا يقوم بذلك غيرها ، وقد تدرج السياق من الأدنى في اللباس الذي يوارى  
السوات الي الرياش ، ثم الانتقال الي اللباس الحق الخالد (لباس التقوى).

\* حناتا قال تعالى :

<sup>(١)</sup> اللسان مادة (ريش)

((يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا))  
مريم (١٣)

فلم تأت في كتاب الله كلمة (حنانا) إلا في هذا الموضع ، فهي وحيدة في مادتها وصياغتها ، وجاءت لتعبر عن موقف فريد ، وهو مجئ هذا المولود (يحيى) لأب قد طعن في السن (زكريا عليه السلام) ولأم عاقر ، يقول تعالى :

((يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَكُونُ لِيْ غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا))  
مريم (٧-٨)

فكانت هذه الكلمة (حنانا) أقدر من غيرها على التعبير عن أثر هذا المولود لأبويه في مثل ظروفهما ، ومدى ما يلقاه الأبوان الكبيران من حنان الابن ، ومما يشيع جو الرحمة والحنان مجئ الحنان في الآية مسندا إلى قوله تعالى : (من لدنا) مؤثرا ذلك على (من عندنا) مثلا . لأن اللذن : اللين من كل شئ كما أفاده اللسان

#### \* فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ

قال تعالى :

((فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَأْخُذْتَنِي مَيْتٌ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَّمْسِيًّا))  
مريم (٢٢-٢٣)

ولم يأت الفعل : (أجاء) رباعيا مزيدا بالهمزة إلا في هذه الآية . وأما الثلاثي منه فكثير ، مبنيا للمعلوم والمجهول ، والمعنى الذي اختاره المفسرون : ألجأها واضطرها ، وفي الإجاء بها من معنى شدة الموقف وعسر الاضطرار

، ما ليس في كلمة "الجاها" بما تفيد من معنى الملجأ والملاذ ، بصريح آياتها الثلاثة في الكتاب المحكم<sup>(١)</sup> يقول تعالى :

((لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُخْلَافًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ))  
التوبة (٥٧)

((وَقُلْنَا إِنَّ لَكُمْ مَلْجَأً مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ))  
التوبة (١١٨)

((مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ))  
الشورى (٤٧)

**ضيبي**  
قال تعالى : ((الْأَكْمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذْ نَسَمَةٌ ضِيْبِي))  
النجم (٢١-٢٢)

الضيبي : الظلم والجور ، فهي قسمة جائرة ، وهذه الكلمة وحيدة في القرآن الكريم من حيث الصياغة والمادة ، وهي "اللفظة غريبة من أغرب ما فيه ، وما حُصنت في كلام قط إلا في موقعها منه ، ومع ذلك فإن حسناتها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أدركت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضوع غيرها ، فإن السورة التي هي منها - وهي سورة النجم - مفصلة كلها على الباء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب . إذا وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد .. فكأنت غريبة اللفظة أشد الأشياء ملازمة لغريبة هذه القسمة التي أنكرها ، ووصفت حالة المتهم في

(١) د . عائشة عبدالرحمن - الإعجاز البيان للقرآن - ط٢ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٧ - ص ٣٢٥ . وقد قاست بتحقيق ودراسة مسائل تابع بن الأوزي .

إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المذنين فيها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغير ابتها اللفظية" (١)

\* أبائيل : ((وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَائِيلَ)) الفيل (٢)

لم ترد في القرآن الكريم كله إلا في هذا الموضع ، وتفردا يدل على تفرد الحدث والموضوع ، وهو هلاك أصحاب الفيل بالمعجزة الإلهية ولم يذكر الفيل في القرآن كله - أيضا - إلا في هذا الموضع وهو وصف لعذاب لم يتكرر ، فهو حدث فريد ناسبة هذا التعبير الفريد ، والكلمة في ذاتها تقوم بتصوير المشهد تصويرا حيا دقيقا .. فهي طير أبائيل ، تذهب وتجيء في حركة مضطربة لتضرب رؤوس أصحاب الفيل بالحجارة التي من (سجيل) ، فتبليبل عليهم رؤوسهم - كما يقول ابن عباس - وتكرير الباء واللام في اللغة العربية "فيما فيه ملحظ اضطراب واختلاط . بلبلة الأسنة ، أى اختلافا . بلبل القوم : هيجهم ، وفارقت العربية بين الحمى في البلبلة ، والمعنوى في البلبال ، اللهم الشديد يضطرب له الببال من اختلاط الوماموس وكثرة الهواجس . وكل ذلك يعطى كله "أبائيل" حسن البلبلة والبلبال" (٣)

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٦١

(٢) الإعجاز البيان للقرآن ص ٤٤٩ .

### خاتمة

بعد أن عشنا هذه القطوف الباتعة في بستان القرآن الكريم ، وعشنا أسلوبه المتميز وسياقاته المتفردة التي قامت بدورها الكامل ليس في إبراز المعنى واستجلاب الكلمة المناسبة فحسب ولكن - أيضا - في إظهار بواعث الموقف وكوامنه ، وإظهار مكنون شخصيات المشاهد المختلفة ، فالمشهد بسياقه اللغوي والموضوعي ، يختلف فيما إذا كان يتحدث عن الطبيعة وقدره الخالق ، أو الجنة أو النار أو الإيمان أو النفاق ، فتسير اللغة وأسلوب تركيبها حسبما يقتضيه ذلك المشهد ليألف اللفظ مع المعنى ، فيرق ويغلف ، ويلين ويشد حتى يظهر المشهد في صورة حسية حاضرة ..

- فالاستفتاح بالأساليب الإنشائية أو الخبرية يكون تبعا لموضوع السورة ومراعاة لحال المخاطب .. بل إن اختيار نوعية الأسلوب الإنشائي من نداء أو دعاء أو غيرهما ، يحدده نوعية الموضوع وسياق الخطاب ، وكذا الأمر في الافتتاح بالأسلوب الخبري ونوعيته الاسمية أو الفعلية الماضية أو الاستمرارية ، كقوله تعالى في مطلع سورة الصف : ((سبح لله ما في السموات وما في الأرض)) بالفعل الماضي (سبح) ، وهذا لكي تتناسب مع خاتمة السورة قبلها (سورة الممتحنة) بالفعل الماضي والتعبير عن انتهاء الشيء ، وذلك في قوله تعالى :

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسَوْنَ  
الْآخِرَةَ كَمَا يَنسَى الْكَافِرُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)) المستحقة (١٣)

فجاء الإخبار في افتتاح سورة الصف بالماضي (سبح) ، ليبلغ مثل هؤلاء بأنهم إذا كانوا قد جحدوا تسبيح الله ، فقد سبح لله كل ما في السموات والأرض مع استغناء الله عن ذلك ، وعدم تأثره به سلبا أو إيجابا ، ولذلك ختم آية التسبيح بقوله : (وهو العزيز الحكيم) .

## خاتمة

وقد سارت الآيات في تلاحيهما والسورة في تناسقها وتآلفها مع بدايات وخواتيم أخواتها في انسجام متلاحق كحلقات متشابكة يسلم بعضها بعضاً في تناسق عجيب وترتيب فريد ، مما يشير إلى توقيف ترتيب السور وتبرز صورة من صور إعجاز التخلص والترتيب ، والله تعالى أعلم .

على أن التخلص القرآني قد جاء منسجماً مع النفس البشرية السوية فلا يكاد يشعر به القارئ أو السامع ، فيكون المتلقي منتظماً وجدانياً وعقلياً يسير في إطار واحد دون توتر أو اضطراب .. وقد جاء التخلص على غير المعتاد ، مما يتطلب طبيعة الموقف والسياق والمخاطب ، كما جاء في قوله تعالى :

((زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ . قُلْ أُوْتِينَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ ..)) ل عمران (١٤-١٥)

فهذا انتقال من ملذات الدنيا وشهواتها بإغراءاتها المتعددة إلى نعيم الآخرة والصفات المتعددة لعباد الله ، فكان السياق وطبيعة مشهده يستلزم تلك الوقفة (قل ..) لتصحو النفس من غفوتها ، وتنقل تلك النقطة المضادة الاتجاه .. وكقوله تعالى :

((وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا أَيُّوبَ ...)) ص (٤١)

((وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ...)) ص (٤٥)

((هَذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)) ص (٤٩)

فالتخلص هنا احتاج إلى وقفة نظرا لطبيعة الموقف وأهميته ، فالحديث ينتقل من ذكر قصص الأنبياء للعظة والعبرة والامتثال والقُدوة ، وينتقل من حدث مع نبي إلى حدث مع نبي آخر ، ثم ينتقل من الأنبياء إلى عباد الله المتقين ، ثم إلى الطَّاغِينَ ..

وقد يكون التخلص بالتوقف للزجر والردع ، فلا ينساب الحديث انسيابا شعوريا كغيره ، ولكن ينتقل محدثا هزة عنيفة ورجة قوية ، كقوله تعالى :

((يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْمَقْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ..)) لقائمة (١٠-١٢)

وقد حمل القرآن الكريم في سياقاته مظاهر الإعجاز اللغوي بما تضمنه من انتظام الأحرف والكلمات في جملها .. فمن كلم القرآن ما لم يأت إلا مرة واحدة لحكمة يحملها سياقها وموضوعها ، كما تظهر مظاهر الإعجاز اللغوي في وضع الكلمات في موضع يناسبها بحيث لا يؤدي المعنى غيرها ، فمن ذلك مجيء كلمة (القرآن) في مواضع تتبى عن حال كونه مقروءا متدبرا ، كقوله تعالى :

((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَهْلِكُونَ))

فصلت (٢٦)

فالقرآن مقروء وهو سبيل التدبر ، ولذلك قال قولهم : (لا تسمعوا) وطلبوا اللغو فيه والتشويش عليه وقوله تعالى :

((أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) محمد ﷺ (٢٤)



فتناسقت كلمة (يتدبرون) مع (قلوب) ، ولم يقل مثلاً الكتاب في مواضع القرآن ، (ورتل القرآن ترتيلاً) (المزمل ٤) ، (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) (المزمل ٢٠) فالكتاب اسم جامع لأيات الكتاب ومورده ، ويأتى ذكره في مواضع عموم التنزيل كقوله تعالى :

((أَلَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)) البقرة (٢-١)

وربما جاء الجمع بينهما كقوله :

((الرَّ ، يَلِكْ آيَاتِ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)) الحجر (١)

وكان من مظاهر الإعجاز القرآنى : إعجاز الوصف .. فكلما رأينا سابقا كيف جاءت الصفة في مكانها اللائق بها ، فوصف المؤمنين بالمحسنين في مواضع ، والمخلصين في مواضع أخرى .. كلٌ حسبما يقتضيه سياقه ويمليه موضوعه ، ورأينا مثلاً - كيف جاء وصف الشيطان بالرجيم في موضع ، وجاء وصفه بالمارد والمريد في سياق آخر ، فلا نملك إلا أن نقول : (أمنابه كل من عند ربنا) ..

وكان من بلاغة أساليب القرآن ، مجئ الوصف في موضع الحذف ، كما جاء في موضع الذكر ، كقوله تعالى :

((..وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)) الكهف (٧١)

فحذف الصفة ، أى : كل سفينة صالحة ، وفيه تصوير لجبروت ذلك الملك وظلمه وكثرة اغتصابه للسفن .  
وكقوله تعالى :

((فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ))  
القسم (٦٧)

فحذف الموصوف ، والتقدير : وعمل عملا صالحا لأنه ورد في معرض الحديث عن التوبة ، ومن دلائلها كثرة العمل الصالح وإخلاصه لله ، وكذا قوله تعالى : (من المفلحين) تقديره : أن يكون من القوم المفلحين ، وقد يأتي مثبتا في موضع آخر ، كما في قوله تعالى :

((فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ..)) الكهف (١١٠)

وهناك كلمات معينة ترد في وصف الشئ ونقيضه ، ككلمة (عظيم) مثلا ، تأتي في وصف العذاب والخزي والكرب .. كقوله تعالى :

((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)) الأعراف (٥٩)

((فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)) التوبة (٦٣)

((وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) النمل (١٠٦)

((وَتَجْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ)) الصافات (١١٥)

ويأتي أيضا الوصف بعظيم في قوله تعالى :

((وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)) البقرة (١٠٥)

((لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ)) آل عمران (١٧٢)

((وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ))  
التوبة (٧٢)

ومن ذلك - أيضا - مجئ الوصف بكلمة (مبين) فى الشئ ونقيضه ،  
كقوله تعالى :

((وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))  
آل عمران (١٦٤)

((وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ))  
الأنعام (١٤٢)

((قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ))  
يونس (٢)

وقوله تعالى :  
((مَنْ يُضَرْفُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ))  
الأنعام (١٦)

((فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ))  
النحل (٣٥)

((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ))  
الشعراء (٢)

وقد تلتى الكلمة - أحيانا - حاملة الصفة اللونية فى سياق مشهد ينبض  
بإبراز مظاهر قدرة الله ، كقوله تعالى :

((وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ))  
طه (٢٧)

وكانت الصفة الخضراء هى الأكثر ورودا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك  
قوله تعالى :

((الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا)) يس (٨٠)

وقوله تعالى :  
((إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سَنَابِلَ خُضْرٍ  
وَأَخْرَ يُوسُفَ)) يوسف (٤٣)

وقوله تعالى :  
((مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعِجْرٍ حِسَانٍ)) الرحمن (٧٦)

وقوله تعالى :  
((عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ)) الإنسان (٢١)

وقوله تعالى :  
((وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ)) الكهف (٣١)

\* وقد تكون الصفة حاملة اللون الأصفر ، كقوله تعالى :

((ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا)) الزمر (٢١)

وقد وقعت (مصفرا) صفة لمحذوف تقديره : نباتا مصفرا .

أما النعت السببي فقد جاء في بعض المواضع ليبرز أهمية النعت ودوره في فاعلية المشهد والحدث ومن ذلك قوله تعالى :

((قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاتِلِينَ)) البقرة (٦٩)

فالنعت السببي (فالق) صور المشهد حسيا وأبرز اللون الأصفر في شدته وصفاته ، لأنه موضوع السياق ، فهو تشديد عليهم كما شددوا على أنفسهم ، وجملة (تسر) صفة وأنت اللون لوجهين : أحدهما : أن اللون صفرة ها هنا فحمل على المعنى والثاني : أن اللون مضاف إلى المؤنث فأنت ، كما قال : ذهبت بعض أصابعه ، وقوله تعالى : "يلتقطه بعض السيارة"<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : ((وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)) البقرة (٢٨٣)

فقد برزت خطورة كتمان الشهادة عن طريق النعت (آثم) فظهر عظم الإثم وفداحته .

وقوله تعالى : ((رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)) النساء (٧٥)

فالنعت السببي (الظالم) أبرز خلق أهل تلك القرية ، وبين مسبب الدعاء بالخروج .

وقد تأتي الصفة حاملة الطعم والتذوق لحكمة يقتضيها السياق والمشهد ، كإبراز النعمة في خاصية تناول السمك ، فيقول تعالى :

((وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)) النحل (١٤)

وكذلك - أيضا - وصف الماء بالطهارة والنقاء لبيان نعمة الله وقدرته ، كما في قوله تعالى :

<sup>(١)</sup> التبيان في إعراب القرآن ٤٢/١

((وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قَرَارًا)) المرسلات (٢٧)

((فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)) الملك (٣٠)

أو تأتي الصفة التدفقية للماء لبيان مدى قبحه ومرارته والعذاب الكامن فيه ، وذلك كما جاء في قوله تعالى :

((مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)) إبراهيم (١٦)

وقد تأتي الصفة بأغراض أخرى غير ما سبق ولكن على قلة كمجبتها بغرض التخصيص ، مثل قوله تعالى :

((حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَزَوَّجْتَكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا تَخْلُتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ...)) النساء (٢٣)

فجاء التخصيص للأمهات المرضعات بقوله تعالى : (اللاتي أرضعنكم) ، وكذلك تخصيص الربيبة بحرمتها على زوج أمها ، وذلك في قوله : (وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم) ، ثم جاء الوصف لتخصيص التحريم في حالة الدخول : (اللاتي دخلتم بهن) ، وكذلك - أيضا - تخصيص زوجة الابن الذي من صلب الأب بالحرمة على أبيه : (وخلائل آبائكم الذين من أصلابكم) ، فهذا الوصف (الذين من أصلابكم) أخرج كل بنوة غير حقيقية.

وكذلك خصصت الصفة النكاح من الفتيات المؤمنات في قوله تعالى :

((وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)) النساء (٢٥)

وفيه مدح - أيضا - لهن ، لكون غير المؤمنات يخرجن من هذا التخصيص ، ومثله - أيضا - ما جاء في قوله تعالى :

((فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)) النساء (٦٢)

ومثل ذلك - أيضا - ما جاء للتخصيص والمدح في قوله تعالى حكاية عن إبليس اللعين :

((قَالَ رَبِّ مَا آغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)) الحجر (٤٠)

وقد تأتي الصفة للعموم والاستغراق ، وهي - أيضا - قليلة ، كقوله تعالى :

((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)) الأنعام (٣٨)

فجاء الوصف في قوله تعالى : (في الأرض) وقوله : (يطير بجناحيه) لزيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط في جميع الأرض السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها ، والغرض في ذكر ذلك ، الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه وسعة سلطانه<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> الكشاف ٢/٢١

## خاتمة

ويرى الناظر في أساليب القرآن مدى دقة تراكيبه ووضوحها وعمق معانيها ، فالكلمة المختارة في التركيب والتصوير لها قدرة إعجازية على تصوير المواقف وأصحابها وإبراز أعماق نفوسهم ، فيقف الرجل العامي ببساطة فهمه وتذوقه لينهل منه ما يشاء دون عناء أو مشقة ، وينظر إليه صاحب البيان والتأويل والبلاغة فيستخرج منه ما يشاء من درر وعجائب .. وهذا القرآن بأسلوبه ولغته هو الذي تحدى العرب بفصاحتهم وبلاغتهم وقد عجزوا أيما عجز ، وظلت أساليبه على الدوام تضيئ الطريق لكل صاحب علم ..

ولا شك أن القرآن الكريم بإعجازه اللغوي والبلاغي قد شكل الوجدان والفكر للمسلم بصفة عامة ، والأديب العالم والناقد بصفة خاصة ، فتذوق الأساليب والمعاني ومواضع الأحرف والكلمات ، وظهر ذلك جليا في علمائنا السابقين ، وكان من أبرزهم : أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) ، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، وابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، والأمدي (ت ٣٧١ هـ) والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢ هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) وغيرهم ممن أسهموا بقوة في ترسيخ علوم القرآن وعلوم العربية وآدابها ، فكانت أعمالهم تأصيلا لتشكيل فكر العلماء اللاحقين من العرب وغير العرب "كفرديناكد سومير" (١) (١٨٧٥-١٩١٣م) ، و "الكونت دي يوفون" (٢) (١٧٠٧-١٧٨٨) ، و "شارل بالي" (٣) (١٨٦٥-١٩٤٧م) ، وغيرهم .

(١) عالم سومير ، فصل بين علم اللغة وعلم الأسلوب على قول بعض الكاتين .

(٢) كتاب فرنسي شهير ، له باع طويل في الأسلوب والآداب والعلوم الطبيعية .

(٣) من أشهر علماء فرنسا ومؤسس علم الأسلوب فيها .



### المصادر والمراجع

- ١- ابن الأثير - المثل المنائر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٥ .
- ٢- البقاعي - نظم الدرر في تناسيب الآيات والسمور - تحقيق عبد الرزاق المهدي - ط١- دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥ .
- ٣- ابن جماعة كشف المعاني في المتشابه من المثاني - تحقيق د. عبد الجواد خلف - ط١- دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٠ .
- ٤- أبو حيان - البحر المحيط - ط٢- دار الفكر - ١٩٨٣ .
- ٥- الرافعي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط١- مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٤٥ .
- ٦- الرازي - التفسير الكبير - ط٣- دار إحياء التراث العربي وتحقيقه - بيروت - ١٩٩٩ .
- ٧- الرماني - النكت في إعجاز القرآن - تحقيق - محمد خلف الله و د. محمد زغلول سلام - ط٤- دار المعارف - القاهرة - ١٩٩١ .
- ٨- الزركشي - البرهان في علوم القرآن - تحقيق - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار التراث - القاهرة .
- ٩- الزمخشري - الكشاف - تحقيق مصطفى حسين - ط٣- دار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧ .
- ١٠- السعدي - تفسير (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) - دار الحديث - القاهرة - ٢٠٠٠ .
- ١١- سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ط١٤- دار الشروق - بيروت - ١٩٩٣ .
- ١٢- سيد قطب - في ظلال القرآن - ط٢٥- دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٦ .
- ١٣- الشوكاني - فتح القدير - تحقيق د. عبد الرحمن عميرة - ط٢- دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٧ .

- ١٤- د. عائشة عبد الرحمن - الإعجاز البياني للقرآن - ط ٢- دار المعارف القاهرة - ١٩٨٧.
- ١٥- ابن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر - الجماهيرية العربية الليبية.
- ١٦- عبد القاهر الجرجاني - دلالات الإعجاز - تحقيق الشيخ محمود شاكر - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٠.
- ١٧- العكبري - التبيان في إعراب القرآن - ط ١- المكتبة التوفيقية - القاهرة - ١٩٧٩.
- ١٨- عبد الكريم الخطيب - إعجاز القرآن - ط ١- دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٦٤.
- ١٩- د. فتح الله سليمان - الفعل في سورة البقرة - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٩٩٧.
- ٢٠- ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - تحقيق الشيخ الصابوني - ط ٧- دار القرآن الكريم - بيروت - ١٩٨١.
- ٢١- الكرمانلي - أسرار التكرار في القرآن الكريم - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - ط ٢- دار الاعتصام - القاهرة - ١٩٧٦.
- ٢٢- محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ط ٤- دار المنار - القاهرة - ١٩٥٤.
- ٢٣- د. محمد موسى - التذكير وأثره البلاغي في القرآن الكريم - ط ١- مطبعة الأمل - المنصورة - ٢٠٠٠.
- ٢٤- ابن منظور - لسان العرب - ط ١- دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٣.

#### مراجع أجنبية

- 1-Dennis Freeborn : Style, text Analysis and Linguistic Criticism. A Course Book in English grammar Christine McDonald, 2nd Edition, 1996 P.P. 95.
- 2- Jean Dulois Dictionaries de linguistic et des suences du language, Paris, lerousse, 1994, P. 116..

رقم الصفحة	قائمة المحتويات الموضوع	مقدمة الفصل الأول إبداع التركيب ودلالته
٧	- الخبر والإنشاء في فواتح السور	
١٨	- الاستهلال بالجميل الخبرية	
٢٢	- في الفعل ومتعلقاته	
٢٩		الفصل الثاني إعجاز الوصف
٣٠	- المدح والتعظيم	
٣٨	- وصف القرآن الكريم	
٤٣	- وصف الجنة	
٥٠	- الصراط المستقيم	
٥٣	- وصف المؤمنين	
٦٠	* الذم والتحقير	
٨٠	* البيان والتوكيد	
٩١		الفصل الثالث التخلص
٩٢	- التخلص من الوعد إلى الوعيد	
١٠١	- التخلص في آيات قدرة الله وصفاته	
١١٣		الفصل الرابع إعجاز الكلمة
١١٥	- التصوير الصوتي للكلمة	
١٢٣	- الكلمة الصوتية في مشاهد القيامة والنار	
١٣٠	- الكلمة والسياق	
١٤٩	* خاتمة	
١٦٠	* المصادر والمراجع	

---

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٠/١٥٨٦٢

